

كانت صعبة ومغرورة ..

كان المعروف عن ناهد أنها فتاة صعبة . . وكان أبرز ما تعرف به أنها مغرورة . . لم تكن في منتهى الجمال ولكنها كانت جميلة . . ولم تكن في منتهى الذكاء إلى حد العبقرية ولكنها كانت ذكية . . ولم تكن في منتهى الثراء ولكنها لم تكن محتاجة . . ومهما كان رأى الناس فيها فقد كانت معتدة بنفسها إلى حد أن تضع نفسها فوق آراء كل الناس . .

وكانت معتدة بنفسها مستقلة بذاتها حتى بالنسبة لأبيها وأمها . . فقد كان من المستحيل أن يفرضها عليها أمرا ولكنها عودتهما على أن يحاولا إقناعها بما يريدان . . وعودتهما على أن يقبلا اعتذارها إذا لم تقفنت . . ففي التعليم مثلا لم تكن تخضع للمدرسة التي يختارها لها والدها حتى منذ أن كانت صغيرة . . إنها هي التي تتعلم وليس والدها . . ومن حقها أن تكون هي التي تختار ما تريد أن تتعلمه وتختار المدرسة التي تتعلم فيها . . وكانت تنتقل من مدرسة إلى مدرسة ثم اختارت بعد أن شبت أن تلحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية رغم أن والدها لم يكن يستطيع أن يرى لها مستقبلا من وراء هذه الكلية . . ولكنه استسلم فقد كانت دائما ناجحة في تحقيق ما تختاره . . وقد نجحت في التعليم العربي . . والتعليم الفرنسى . . والتعليم الانجليزى . . ثم التحقت بمدرسة للتعليم الألماني . . إنها تختلف عن كل البنات . . فليس لها طبيعتهن . . ولا دوافعهن وهوايتهن . . وكل ما يميز شخصيتها هو تفرغها للقراءة والدراسة . . إنها تصمم على أن تبقى وحدها مع كتاب على أن تذهب في زيارة . . أو تلبى دعوة إلى حفل . . كأنها تضع نفسها فوق المجتمع كله مع احساسها بأنها أرقى وأسمى من هذا المجتمع . .

وناهد الآن في الخامسة العشرين من عمرها . . ولم تتزوج . . وقد توفي أبوها وأمها وهي تقيم في بيت العائلة مع اختها الصغرى وزوجها وأولادها . . وتقيم معهم مستقلة بنفسها استقلالا كاملا . . ولا يحاول أحد أن يتدخل في حياتها ولا حتى مجرد الكلام في البحث عن زوج لها . . كأنها تعيش في بنسيون . . ولكنها تحب كل من يقيم في هذا البنسيون وكلهم يحبونها . . وقد رفضت أن تكون موظفة في الحكومة بعد تخرجها من الجامعة وعاشت تنتقل في مجالات كثيرة للعمل . . وتتنقل لا لأنها تواجه مشاكل في أى عمل ولكن لمجرد أنها تريد أن تجرب . . وكلما انتهت من تجربة انتقلت إلى تجربة أخرى . . إنها تهوى التجربة . . والتجارب هي أساس المعرفة أكثر . .

إلى أن كان يوم مرت خلاله ساعات فراغ كانت تقضيها في حجرتها بالبيت ثقل في محتويات دولابها . . ووقعت يدها على سوار عريض من الذهب المحلى بفصوص الماس والياقوت . . انه سوار كانت تملكه أمها ووقع في نصيبها من الأرض . . وأخذت ثقله أمام عينيها وهي تتسأل عن مدى حاجتها إليه . . إنها لن تضعه في رسغها أبدا وتترزين به . . فهو كبير عريض لا تطيق أن تظهر به . . كأنه فضيحة أرستقراطية لامرأة تتيهاى بثرائها . . ان كل ما تضعه في رسغها سوار ذهبي رفيع عادى تحتفظ به بحكم العادة منذ كانت صغيرة . . أو ربما لتحفظ بمظهر بسيط يثبت أنها أنثى . . ولكنها يجب أن تحتفظ بهذا السوار العريض الفاقع اللون ولو في دولابها احتفاظا بذكري أمها . . ولكن . . لعل من الأجدى أن تحتفظ بذكري أمها فيما تمارسه وتعيش فيه فتبيع هذا السوار وتشتري بثمنه مجموعة من الكتب تذكرها صفحاتها بأمها . . أو تأخذ الثمن وتنفقه في رحلة تقوم بها إلى أمريكا . . إنها لم تدرس بعد المجتمع الأمريكى وسيكون لأمها فضل تمكينها من هذه الدراسة وتوفيرها لها . .

وحملت السوار في حقيبتها وذهبت إلى دكان عبد الله نور الدين الجواهرجى . . لقد سبق وذهبت إلى هذا الدكان أكثر من مرة مع

وحدث مثلا وهي في السابعة عشرة من عمرها أن قررت أن تقوم وحدها برحلة إلى إنجلترا وفرنسا . . وجن الأب . . كيف يترك ابنته الشابة تسافر إلى أوروبا وحدها . . ولكنها مصممة . . انها تريد أن ترى على الطبيعة ما قرأت في الكتب حتى تزداد علما . . ثم لماذا يخاف الآباء على بناتهم من السفر إلى الخارج وحدهن ولا يخافون على الأولاد . . إن شخصية البنت لا تقل عن شخصية الولد لمجرد ان هذه بنت وهذا ولد . . ثم ان شخصية البنت لا تختلف لمجرد الابتعاد عن أهلها في بلد غريب . . وإذا كانت هي معرضة للانحلال أو للخروج عن مبادئها وهي حرة في لندن أو في باريس . . فهي أيضا معرضة للانحلال وضياع المبادئ وهي في مصر بين أهلها . . بل وهي في داخل بيتها . . أى بيت العائلة . . واستطاعت ناهد باصرارها أن تسافر وحدها . . وعادت بعد شهرين دون أن تحمل أى هدية لأى فرد من أفراد العائلة . . إنها لم تسافر لتطوف بالدكاكين . . كانت متفرغة لمشاهدة ودراسة المجتمع الآخر . . وكل ما في دكاكين أوروبا تستطيع أن تجده في بعض دكاكين مصر . . وكان أكثر ما يحير العائلة في ناهد أنها لا تحس أبدا بحاجتها إلى رجل . . وكانت على صلة بكثير من الطلبة والأساتذة الذى تلقى بهم في دراستها . . ولكن لم يعرف عنها أبدا ارتباطها بواحد منهم . . ولا بواحد من شبان المجتمع الذى يحيط بها . . ليس لها قصة حب . . ولا حتى مجرد قصة تبادل اعجاب . . حتى لو تمنّاها رجل فهي لم تتمن أبدا أى رجل . . حتى فكرة الزواج التى تصحب كل فتاة منذ تعى أنوثتها لم تطرأ أبدا على ذهن ناهد . . وتهرب منها في أى حديث حتى ولو كان حديثا ضاحكا . . إنها لا تريد الزواج ولن تتزوج . . لعلها فاقدة لأنوثتها . . لاستطيع أن تضع نفسها في صورة زوجة أو صورة أم . . حتى لمجرد اشباع طبيعتها كأنثى . . أو لعل غرورها جعلها تعتبر نفسها في مستوى لا يمكن أن يشاركها فيه أى رجل . . ليس هناك رجل يمكن أن تكون له أو يمكن أن يكون لها . . وعجزت كل المحاولات عن اقناعها بالزواج . . حتى اضطرت العائلة أن تقبل زواج اختها الصغرى قبلها رغم التقاليد التى تفرض زواج الكبرى قبل الصغرى . .

- كيف حصلت عليه ؟

وقالت في دهشة لسؤاله وفي لهجة كأنها تتحداه :

- لقد ورثته عن المرحومة أمي ..

وقال كأنه يتطوع لانقاذها في رفق :

- لا بد أن المرحومة والدك ورثته هي الأخرى عن أمها .. ان هذا السوار تحفة قديمة غالية .. وأنصحك أن تحتفظي به .. ولا تبيعيه إلا مضطرة .. فثمن هذه التحف يرتفع من يوم إلى يوم .. كما يرتفع سعر الماس والذهب .. ان مجرد الاحتفاظ به يعطيك أكثر مما يعطيك البنك من أرباح لو وضعت فيه ثمنه .. أي ان الثمن الذي تبيعين به اليوم يمكن أن يرتفع إلى الضعف في العام القادم ..

وقالت في دهشة يشوبها الشك :

- غريبة .. لماذا لا تشتريه أنت اليوم وتحتفظ به حتى يرتفع ثمنه إلى الحد الذي يغريك ببيعه ..

وقال وفي عينيّه نظرة حانية كأنه يشفق عليها :

- لأني فهمت أنك زبونة قديمة لنا .. وصاحب المحل مسئول عن مصالح زبائنه لا على مجرد الكسب من ورائهم حتى يحتفظ بثقتهم ..

وقالت كأن دهشتها تدفعها إلى التحقيق معه :

- هل أنت أصبحت تعتبر من أصحاب المحل ..

وقال من خلال ابتسامته :

- تقريبا ..

والدتها .. انه جواهرجي العائلة .. وهناك .. التقت لأول مرة بشريف الهنداوى يستقبلها كأحد العاملين بالمكان .. انه شاب وسيم .. يحمل وجهه الأبيض من خلال عينيّه الملونتين ملامح جادة محترمة تحيط بابتسامة ضيقة هادئة .. ولا تدري لماذا أطالت النظر إليه .. ربما لأنه يستطيع أن يفرض احترامه بمجرد وجوده .. وربما لأنه لم يهمل في استقبالها كعادة التجار في استقبال الزبائن .. ووجدت ابتسامة من ابتساماتها النادرة تتعلق بشفتيها وهي تقول :

- لقد ترددت كثيرا على الدكان ولم أرك من قبل .. هل جئت إليه حديثا .. وقال وقد اتسعت ابتسامته قليلا :

- منذ حوالى عام .. وأتمنى أن يستمر عملي مع عبد الله بك نور الدين طوال العمر .. وابتلعت ابتسامتها ولم تحاول أن تسأله أكثر كأنها تنهت إلى الاحتفاظ بشخصيتها الجادة .. وفتحت حقيبتها وأخرجت السوار العريض وناولته له قائلة :

- كم يساوى هذا السوار .. أريد أن أبيع ..

والتقط منها السوار وأخذ يقلبه بأصابعه .. ثم وضع نظارة صغيرة كأنها ميكروسكوب على إحدى عينيّه وأخذ ييقلب في كل فص من الفصوص الماسية المعلقة بالسوار ثم رفع الميكروسكوب وفرد السوار أمامه في حرص شديد كأنه يخاف على شيء عزيز وقال لها :

- هل أنت في حاجة إلى بيعه ..

وقالت وقد عادت ابتسامتها إلى شفتيها :

- انى لست في حاجة ماسة إلى ثمنه .. ولكنى لست في حاجة إليه ..

وقال في لهجته الجادة المهذبة :

وأدارت عينها عنه حتى لا تبدو كأنها تعلقت بوسامته وقالت كأنها
تهرب من سؤاله عن شخصه :

- إنى لا أقهم حتى الآن نصيحتك لى بأن احتفظ بهذا السوار
ولا أبيعته حتى لو كنت أبيعته لك ..

وقال فى هدوء الاستاذ :

- ان رأس المال السائب يحتاج إلى المعاملات المستمرة .. أى إلى
توالى البيع والشراء .. فالرجل الذى يملك مزرعة دواجن محتاج إلى أن
يبيع انتاجه قبل أن يموت الدجاج .. ولكن رأس المال العينى لا يفرض
التعامل به ولكنه يعتمد على دراسات تحيط بكل صفقة وتحدد قيمتها ..
كان يتجمع رأس المال فى كمية من السبائك الذهبية .. أو من الجواهر ..
أو أن يكون مجمدا فى قطعة أرض .. لذلك فصاحب رأس المال يعتمد على
دراسة السوق قبل أن يقرر بيع رأسماله أو الاحتفاظ به .. وقد وصل
أصحاب الملايين العرب إلى شراء أراض قاحلة فى جزر بعيدة جرداء تقع فى
المحيط الأطلنطى أو المحيط الهادى .. ودافع الشراء هو ادخار رأس المال
وهم واثقون بأن هذه الجزر ستعمر مع الوقت وتزدحم بالسكان ويرتفع ثمن
الأرض فيها إلى عشرات أضعاف الثمن الذى اشتراه بها أى كأنه يدخر
رأسماله فى بنك خاص ترتفع أرباحه عن أى بنك من البنوك المعروفة ..

وكانت تستمع إليه بطبيعتها الدراسية التى تدفعها إلى هواية جمع
المعلومات .. وقامت من المقعد الذى كانت تجلس عليه قائلة :

- إنى مازلت فى حاجة إلى المزيد من الشرح حتى اقتنع .. وسأمر
عليك يوما آخر .. وهمت أن تنصرف وهو يمد إليها يده بالسوار قائلا :

لا تنسى السوار ..

وترددت لحظة ثم قالت :

- احتفظ به لديك إلى أن أستقر على مصيره .. أما أن أصمم على
بيعه أو تكون أنت قد غيرت رأيك وقررت شراءه ..

وقال كأنه يتعلق بها :

- انتظرى لأكتب لك ايصالا ..

وقالت بسرعة وهى تتبعد :

- سأمر عليك ..

وقد نشأت على الثقة فى التعامل مع عبد الله نور الدين الجواهري
صاحب المحل من طول المدة التى جمعت عائلتها به .. ولكن .. لعلها
اكتسبت مزيدا من هذه الثقة بعد أن التقت بشريف الهنداوى الذى أصبح
يعمل معه ولذلك تركت له السوار دون أن تنتظر أن يكتب لها ايصالا .. ولم
تسال نفسها من أين اكتسبت ثقتها بشريف .. انه مجرد احساس ..

وقد قضت يومها وهى تراجع دراستها عن التصرف برأس المال ..
وتبحث عن كتب لم تقرأها من قبل .. انها تحس بأنها تدخل فى عالم
جديد .. ولانفسر هذا الاحساس بأكثر من هوايتها للدراسات .. لم تحس
بأنها تقدم على تجربة جديدة أوحث لها بها مجرد رؤية شريف ..

وفى اليوم التالى اتصلت به بالتليفون وقالت له إنها فى حاجة إلى حديث
طويل لتستكمل اقتناعها الذى يخص التصرف فى السوار .. وهى لا ترى
أن لقاءها به فى الدكان يكفى لتبادل هذا الحديث لذلك فهى تدعوه لتناول
الشاي معها فى بيتها ..

وهى قد تعودت أن تدعو بعض الأساتذة والزعماء الذين يعملون معها
إلى البيت .. لم تكن الدعوة شيئا جديدا عليها أو على أختها التى تعيش
معهما .. وان كان معظم الذين سبق أن دعهم قد أوقفت دعوتهم وابتعدت

عنهم .. لأنهم بدأوا يستغلون هذه الدعوة للتعامل معها كأنثى ..
ويحاولون الوصول معها إلى ما يريده الرجل من الأنثى ..

وقد جاء إليها شريف وجلس معها هادئاً مهذباً من خلال وسامته ..
كانه يعتبرها دعوة عادية يوجهها الزبون إلى التاجر الذى يتعامل معه ..
وقد بدأ بأن قدم لها ايضالا يضم وصفا لكل تفاصيل السوار الذى تركته
له .. وهو يقول :

- من الأفضل أن تحتفظى بالسوار .. رغم اعتزازى بثقتك فى
عبد الله بك وئى ..

واستمر الحديث بينهما طويلا حول أسرار سوق المجوهرات وسوق
التعامل برؤوس الأموال .. ولكنه لم يعد حديثاً بين تاجر وزبونة .. ولكنه
أصبح أقرب إلى حديث بين صديقين لا يحمل أى كلمة تخرج بهما عن
مجرد بداية صداقة .. ولكنها قالت له وهى تودعه :

- سأراك مرة ثانية حتى نستكمل الحديث ..

وقال مع ابتسامته الهادئة ودون أن تبرق عيناه بأى أمل يتعدى
الصداقة :

- أرجو أن تسمى لى فى المرة التالية بأن أكون أنا صاحب الدعوة ..

وقالت فى بساطة دون أن تحس بأنها تعرضت للتجربى عليها :

- أين

قال فى بساطة :

- أما فى بيتنا لتلتقى بأبى العجوز وبأختى الكبرى وأولادها الذين
يزحمون البيت .. وأما فى أى مكان تختارينه ..

وقالت فى بساطة دون أن تحس بجراتها :

- لنؤجل زيارة البيت ونلتقى فى أى مكان لتناول الشاي ..

والشئ الذى يعتبر جديدا عليها أنها بعد أن خرج شريف اندفعت إلى
اختها وأخذت تحدثها عنه وتروى لها عما كان بينهما من مناقشات .. لم
يكن يهمها أن تشرك اختها فى أى تصرف خاص بها .. وبعد أن لبت دعوة
شريف لتناول الشاي فى محل عام .. عادت تروى لأختها أيضا تفاصيل
مآدار بينهما من حديث .. رغم أنه لم يكن فى حديثهما شئ أكثر من تبادل
المعلومات الدراسية عن كثير مما فى الحياة ..

وبعدما بأيام كانت اختها مع زوجها مدعوين إلى سهرة فى الخارج ..
وعادت فى ساعة متأخرة من الليل وفتحت الباب ودخلت وهى تصيح بأعلى
صوتها منادية .. ناهد .. ناهد ..

وكانت ناهد نائمة فاقتحمت أختها غرفتها وأخذت تهزها فى عنف حتى
فتحت عينيها وقبل أن تعتدل جالسة صاحت فيها اختها :

- ماذا تعرفين عن شريف الذى تدعينه ولا تكفين عن الحديث
عنه ..

وقالت ناهد وهى تتثائب :

- ماذا تريدان أن أعرف عنه ..

وصاحت أختها :

- هل تعرفين أنه يهودى .. من أب يهودى وأم يهودية .. ومن عائلة
يهودية معروفة ..

وابتلعت ناهد تنأؤبها وقالت فى صوت حشرجته الصدمة :

- من أين جئت بهذا الكلام ؟

وعادت الأخت تصيح في ثورة قرف :

- سمعت . . . وعرفت . . . وتأكدت . . . وقضينا طول السهرة ونحن نتحدث عنه . . . وطبعاً لم أقل أنها مصيبة وقعت على رأسك . . .

وقالت وهي تقبض على أصابعها التي ترتعش :

- ولماذا تعتبرينها مصيبة . . .

وقالت الأخت وهو تلوى شفقتها :

- لأنه أول رجل في حياتك أحس كأنك تريدينه لك . . . وسأتركك تبحثين عن الحل . . .

وابتعدت الأخت خارجة من الحجرة . . . وناهد جالسة مبخلقة العينين في الفضاء . . . أنه يهودى . . . لقد كانت قد نسيت أن في مصر أو أنه كان فيها يهود . . . أين هم يهود مصر . . . ولكنها يجب أن تعرف الآن أن في مصر يهوداً . . . وهم يهود مصريون . . . وظلت طوال الليل جالسة مبخلقة العينين وهي تستعرض كل لقاء كان بينهما . . . وكل كلمة تبادلها . . . لماذا لم يقل لها أنه يهودى . . . ولعل هذا الترفع والسمو في التعبير عن العلاقة التي جمعتهم ليس من طبيعة شخصيته ولكن لمجرد أنه يهودى ومتأكد أنها يمكن أن ترفضه . . . أن اليهودى تغلب شاطر دحلاب يتسلل داخل فريسته حتى يستولى عليها ويأكلها . . .

وما كاد الصباح يهم على الدنيا حتى اتصلت به في التليفون وقالت له فوراً :

- أريد أن أراك . . .

قال في هدوء وكأنه لم يفاجأ :

- متى ؟

قالت في حدة :

- الآن . . .

قال كأنها ترى ابتسامته تتسع في سماعة التليفون :

- لنتبادل أجمل صباح الخير . . . أين . . . هل أمر عليك الآن . . .

قالت في عنف :

- لا . . . في نفس المكان الذي سبق أن التقينا فيه . . .

والقت سماعة التليفون وهو يقول حاضر . . . دون أن تزوده بكلمة حلوة . . .

وأحست بمجرد أن التقيا كأنها تهم بالابتسام تحية لوسامته . . . وقالت فوراً قبل أن تستريح في جلستها :

- هل أنت يهودى ؟

واتسعت ابتسامته الهادئة كأنه كان في انتظار هذا السؤال وقال في صوت ثابت .

- فعلاً . . . أنا يهودى . . .

وقالت كأنها تهم أن تصرخ في وجهه :

- ولماذا لم تقل لى . . .

وقال دون أن تهتز نيراته :

- لم تمر بأحاديثنا مناسبة تدفعنى لأن أقول لك أنى يهودى . . أو
تقول لى أنك مسلمة . .

وقالت فى حدة :

- لم يكن فىك ما يدفعنى إلى هذا التساؤل . . حتى اسمك شريف
الهنداوى . . اسم عام لا يدفع إلى الشك . .

وضحك رغم أنه ليس من عادته الضحك بصوت عال وقال :

- اننا نتشبه بنجوم السينما الذين يختار كل منهم لنفسه اسما يجذب
الجماهير . . وأبى أسمانى باسم شريف لأنه اسم فى صالح العمل . .
مادمتا نعمل فى مصر . . واسمى الكامل المكتوب فى شهادة ميلادى لا يعرفه
أحد . . هو . . شريف كوهين النداوى . . أى أنى لم أخف إلا فقرة
واحدة من اسمى . .

قالت وكأنها تراجع نفسها :

- كان يجب أن أتساءل عن الأسباب التى دفعتك إلى الاشتغال بتجارة
الذهب والمجوهرات . . وربما كنت عرفت من خلال هذا التساؤل بأنك
يهودى . . فهى المهنة التى تجمع اليهود . .

وقال فى جدية كأنه يلومها :

- ليس كل الجواهرجية والمشتغلين بتجارة الذهب يهودا . . وليس كل
اليهود يعملون بهذه التجارة . . وليست هناك مهنة مقصورة عليهم . . إنهم
يعملون فى كل المهن كباقي أفراد الشعب . . وبينهم الغنى جدا والفقير
جدا . . وبينهم المتعلم جدا والجاهل جدا . . أن اليهود هم مجموعة تمثل
كيانا فى أى شعب . . ويجمعهم كلهم أنهم مواطنون . . فاليهودى فى فرنسا
فرنسى . . وفى إنجلترا انجليزى . . وفى الهند هندى . . وفى مصر
مصرى . .

وقاطعته قائلة فى سخرية :

- وفى إسرائيل مجرد إسرائيليين . .

وقال مستطردا كأنه لم يفاجأ بهذه المقاطعة :

- فعلا . . كآى طائفة يغلبها التطرف للاستقلال بنفسها وإقامة دولة
خاصة بها . . كما يحاول شعب شمال أيرلندا الاستقلال عن أيرلندا
الجنوبية وعن بريطانيا . . وكما تحاول طائفة السيخ إقامة دولة مستقلة عن
الهند . . و . . و . . عشرات من الطوائف تحاول أن تقوم كدولة . . ورغم
أن التطرف اليهودى حقق إقامة دولة إسرائيل إلا أنه لا يزال بين اليهود من
يرفض هذا التطرف . . ويغلبهم انتماءهم للوطن الذى يعيشون فيه . . وقد
كان أبى كوهين النداوى يهوديا جدا . . ولكنه رفض أن يترك مصر . . أو
يهاجر إلى إسرائيل مع المهاجرين . . أنه لا ينتسب إلا إلى محل الجواهرجى
الذى يمتلكه . . وهو يملكه فى مصر وهو مصرى . . يهودى جدا ومصرى
جدا . . حتى بعد أن أدت السياسة إلى فرض الحصار على كل نشاط يهودى
فى مصر . . جمع أبى كل ما يملك من سبائك الذهب والمجوهرات واحتفظ بها
فى البيت وأغلق الدكان الذى يبيع فيه . . ولم يهاجر مع اليهود
المهاجرين . . بقى فى مصر . . وقد تعذب طويلا وهو قابع فى البيت كأنه فقد
الحياة . . وأن كان قد ضمن ما يكفل حياته وحياة العائلة بفضل ما أدره
ومن خلال اتصالات متباعدة خفية يبيع فيها بعض ما يملكه . . إلى أن تطور
الوضع والجو السياسى فى مصر . . وظهر ما سعى بالانفتاح . . وكان أبى
يريد أن يعيد فتح دكان الجواهرجى . . ولكنى عارضته . . يجب أن يختار
طريقا آمنا فى انتظار مزيد من التطور . . واستطعت أن اتصل بعبد الله بك
نور الدين . . إنه جواهرجى مسلم على اتصال قوى بكل رجال الدولة . .
واستطعت أن أقنعه بأن أعرض فى دكانه السبائك والمجوهرات التى يملكها
أبى مع اقتسام الأرباح . . ووافق . . أنها صفقة مربحة بالنسبة له . .
وهكذا أصبحت من رجال تجارة الذهب والمجوهرات . . لا لأنى يهودى . .
بل لأنى نشأت فى هذه المهنة وتلقيت أسرارها من أبى . .

وكانت تستمع إليه كأنها تناقش كل كلمة بينها وبين نفسها .
وأحيانا تكاد تقتنع وأحيانا ترفض الاقتناع إلى أن قالت له :

- على كل حال فقد كنت أحس دائما بأن هناك ما يبعد بيننا رغم الصداقة الكاملة التي جمعتنا . . . وكنت أعتقد أن السبب هو حرص كل منا على مراعاة الآخر ولا يريد أن يبدأ قبل أن يبدأ الآخر بما يطور هذه الصداقة . . . وكنت أنسب لك أنك رجل محافظ تريد أن تؤكد الاطمع لك في أى فتاة تقبل صداقتك . . . وكنت أتهم نفسي بأنى لا أعرف ما أريد . . . ولم أعود أن أنقاد لنفسي كأنشى . . . وهو ما كان يدفعنى دائما إلى التساؤل عن مصير صداقتنا . . . ولكنى أعرف الآن أن ليس لها أى مصير بعد أن عرفت أنك يهودى . . . فأنا مسلمة . . .

وقال وعيناه تنطقان لأول مرة بالحب ويمد يده يحاول أن يمسك بيدها :

- لا شيء يمكن أن يقضى على صداقتنا . . . أو يحرمنا أن نتطور بها أكثر . . . لا شيء يمكن أن يبعد أحدا عن الآخر . . .

وقالت فى يأس وهى تبعد يدها عن يده . . .

- ماذا تريد حتى تبقى معا . . .

قال وهو يلفها بعينيهِ . . .

- المهم هو ما تريدينه أنت . . .

وقالت متنهدة ببأسها :

- ماذا يمكن أن أريد . . .

قال وهو يبعد رأسه ويدير عنها عينيهِ . . .

- تريدين أن نتزوج . . .

وقالت بسرعة وكأنها تشهق :

- أنك يهودى . . .

وقال فى هدوء :

- انى أعلم انى يجب أن أعلن إسلامى لأتزوجك . . . وأعلم أنك لا يمكن أن تقبلى أن تتزوج زواجا مدنيا بعيدا عن الشرع . . . والإسلام يحابى الرجل المسلم أكثر من المرأة المسلمة . . . فيمنحه حق الزواج من امرأة تنتمى لأى دين . . . ولكنه يفرض على المرأة ألا تتزوج إلا مسلما . . . ان أختى الصغرى تزوجت من عربى مسلم دون أن تضطر أن تخرج عن دينها وتتكرر أنها يهودية . . . اما أنا فلا أستطيع أن أتزوجك إلا إذا أعلنت إسلامى . . . وأنا مستعد . . .

وانطلقت كأنها تدافع عن إيمانها بما اكتسبته من دراساتها :

- الاسلام لا يحابى ولكنه ينظم . . . وقد فرض على المسلمة أن تتزوج من مسلم حتى يضمن أن يكون أبناؤها من المسلمين . . . فالأبناء ينسبون للأب . . . ولا يريد لهم الله أن يكونوا ضحية اختيار الأم لأب غير مسلم لم يشتركوا معها فى اختياره . . . ولذلك قرر الله أن يحمى للأبناء إسلامهم . . .

وقال فى هدوء جاد كأنه يبادلها المناقشات الدراسية كما تعودا :

- ان التنظيم اليهودى لا ينسب الأبناء للأب ولكنه ينسبهم للأم . . . ان أبناء أختى الصغرى يمكن ان يعتبروا انفسهم يهودا رغم أنهم من أب مسلم ومهما اختلفت الأديان فى تنظيم الحياة فأنا نفسى أقبل أن يكون أولادنا من المسلمين لأنى أنا نفسى ساكون مسلما . . . فهل توافقين على أن نتزوج . . .

وتنهدت تنهيدة من أعماقها وهامت نظرات عينيها فى الفضاء كأنها اختار مصيرها ثم قالت وهى تنتفض قائمة من مقعدها :

- لا ادري . . دعنى افكر إلى أن أختار . . وتركته مبتعدة دون أن تمد يدها لتصافحة ودون أن تنطق بكلمة وداع . .

وهو يتبعها بعينين جامدتين ووجه مكفهر . . كأنه تاجر يودع زبونا دون أن يتفق معه على اتمام الصفقة . . ولكن يخالجه أمل بعيد في أن يعود الزبون إليه . .

وانعزلت ناهذاً داخل غرفتها في البيت أياما تفكر وتحاسب نفسها وتحس كأنها تختار مستقبلها ومصيرها . . أنها مفاجأة أقرب إلى الصدمة القاتلة . . لم يخطر على بالها أبدا منذ التقت بشريف أنه يمكن أن يكون يهوديا . . بل أنها عاشت دون أن يطرأ على تفكيرها واحساسها بأن في مصر مواطنين من اليهود . . ربما لأن كل جيلها بدأ وعيه وهو يعتبر أن اليهود هم اسرائيل . . ونحن في حرب مع اسرائيل . . أى في حرب مع اليهود . . وتعمدت السلطات المصرية أن تدفعهم إلى الفرار . . ورغم ذلك بقى منهم أفراد يقيمون في مصر كمواطنين . . آلاف أو على الأقل مئات . . رغم أننا في حرب مع اسرائيل . . أى مع اليهود . . وكل الدول العربية التي تحارب لا يزال يقيم فيها مواطنون من اليهود . . ولكن . . هل المواطنون اليهود يشتركون مع بقية أفراد الشعب في محاربة اسرائيل . . ان بين أفراد عائلتها أربعة من أبناء عمومته قاتلوا في الحرب واستشهد منهم اثنان . . فهل جند شريف أيضا في الجيش المصرى لمحاربة اسرائيل باعتباره مواطنا مصريا رغم أنه يهودى . . ربما لم يلحقه قانون التجنيد لأنه وحيد أبويه من الذكور . . أو لعل الادارة العسكرية تراعى عدم تجنيد اليهود لعدم ثقتهم في دوافعهم لمحاربة اسرائيل . . المهم . . كيف تكون عائلتها في حرب بينما زوجها - لو تزوجت شريف - لا يقبل أن يحارب معها وغاية ما يستطيعه مهما اشتدت دوافعه الوطنية هو أن يقف على الحياد بين بنى وطنه وبنى دينه . . أى بين مصر واسرائيل . . رغم أن المسلمين والمسيحيين يحاربون بعضهم بعضا باختلاف أوطانهم . . كل وطن يحارب الآخر مهما تعددت الديان المواطنين . .

وكانت تخطر على فكرها تساؤلات لا تستطيع أن تجيب عليها . .
الجزى خارجة إلى المكتبات تبحث عن كتب أو تراجع الصحف القديمة . .
الها تعيش في معركة بين مؤثرات عواطفها الخاصة وبين مؤثرات عواطفها الوطنية . . فهي تحس كأن شريف يشد عواطفها ولكنها تحس أن وطنيتها الطمها أكثر . . إنها لا تستطيع أن تختار بين شريف ومصر . . ولكنها اكتشفت من خلال دراستها الشاملة المستفيضة أن كل الدول العربية عدلت من طرد مواطنيها اليهود والتخلص منهم . . ونشرت بيانات صريحة تطالب فيها مواطنيها اليهود الذين فروا منها أن يعودوا إليها . . وان كان لم يعد منهم إلى أوطانهم إلا يهود المغرب . . عاد منهم الآلاف . . بينما لم يعد إلى مصر والسودان وبقية الدول العربية سوى مجموعات من الأفراد لا يتعدى عددهم مجموعة أصابع اليد . . لا تدري لماذا . . ربما لأن حكومة المغرب تسمح لمواطنيها اليهود الذين عادوا إليها حق الاتصال باسرائيل للامتنان لاقاربهم الذين تركوهم هناك أو للاستمرار في مزاوله أعمالهم التي تتركز هناك . . وهو عالم توفره لهم باقى الدول العربية . . وسوريا . . وهى من أعنف الدول العربية تطرفا . . لم يعد إليها أحد من اليهود الذين كانوا قد فروا منها ولكن لا يزال يعيش فيها أكثر من سبعة آلاف مواطن يهودى أرفض ان تترك آيا منهم يهاجر أو يفر إلى اسرائيل . . حتى ان اسرائيل أصبحت تطالب سوريا بما تطالب به الاتحاد السوفيتى وهو اطلاق حرية الهجرة لليهود . . وقد تكون دوافع الدول العربية لدعوة مواطنيها اليهود إلى العودة إليها هو اكتشافها أنها كانت قد وصلت إلى منتهى الغباء بدفع هؤلاء المواطنين إلى الهجرة . . لأنها بذلك وفرت لا اسرائيل مزيدا من القوة برفع تعداد قواتها العسكرية التي تحارب بها . . فإذا سمحت لهم بالعودة فكأنها شحبيهم من قوات اسرائيل لأضعافها . . أى أن الدافع العربى كان دافعا سياسيا عسكريا ولكنه يشمل أيضا التجرد من التفرقة الدينية واحترام اليهود كاحترام النصارى واحترام المسلمين كمواطنين . . أى ان صديقتها شريف اليهودى يعتبر شخصية مصرية كاملة . . لاتلام على صداقتها له كصداقتها لى شخصية من أى دين . . علاوة على أن مصر خطت خطوة أبعد . . وأصبحت لا تقصر اعترافها على اليهود فحسب كمواطنين أو

كأفراد بل أصبحت تعترف أيضا بإسرائيل . . ولم تعد هناك حرب بين مصر ودولة اليهود . .

ثم أن شريف قرر أن يعلن إسلامه لو قبلت أن تتزوجه . . ربما لو تزوجته لرضى الله وأفاض عليها من بركاته لأنها ضمت إلى الإسلام مؤمنا جديدا . . وكما يرضى الله عن الأمهات لأنهن يلدن مسلمين . . فقد قدمت إلى الله مسلما لم تلده ولكنها تزوجته . .

ولكن . . هل يعلن شريف إسلامه إيمانا بالإسلام أم كمجرد تحايل لاتخاذ الإجراءات التي يفرضها زواجه بها ؟ . . إنها لا تستطيع أن تتدخل في أعماقه لتكتشف مدى إيمانه أو تضطره لأن يتخذ مظاهر إسلامية وهو كاذب فيها . . يكفي إعلانه بأنه مسلم . . والمسلمون بينهم من لا يراعى فروض إيمانه بالإسلام ويتحدون ما فرضه الله عليهم ورغم ذلك فهم مسلمون لهم شخصياتهم كمسلمين . .

ومرت عشرة أيام وناهد ضائعة باستغراقها في افكارها وتساؤلاتها . . ثم ففزت فجأة وأمسكت بسماعة التليفون والتقطت شريف وقالت له فورا :

- هل لا تزال عند رايك . .

وقال في هدوء :

- انى عند رايك . .

واطلقت كلمات عنيفة كانها تنطلق من بركان ثائر في صدرها :

- لقد فكرت . . ووافقت . . تعال لأراك هنا في البيت . .

والقت سماعة التليفون قبل أن تسمع رده . . وألقت نفسها على المقعد منهكة . . يغلبها الاحساس بأنها مقبلة على مغامرة خطيرة . . على تجربة جديدة . . وقد كانت حياتها كلها سلسلة من التجارب . .

ويعد أن هدأت قليلا . . نادى أختها عليها وأبلغتها أن شريف سيعلم إسلامه وأنها ستتزوج . . وصرخت الأخت كأنها فوجئت بأنها ماتت . . أن شريف لن يكون أبدا مسلما . . ولن يعتبره أحد مسلما . . انه يهودى . . وستتزوجين يهوديا . . وسيعتبرك الناس ككافرة أو مجنونة . . ويوجهون إليك آلاف التهم ويضيع احترام العائلة كلها . .

وكان زوج أختها أعنف من زوجته في اعتراضه ورفضه . . وكلاهما رفض رؤية شريف عندما جاء يومها للقاء ناهد . . رغم أن المفروض أنه جاء لإعلان الخطوبة وعندما وصل الخبر إلى بقية أفراد العائلة ثاروا جميعا رافضين . . ولكن ناهد كانت قد عودتهم أن تستقل بنفسها عنهم ولا تسمح لأحد منهم بالتدخل في شئونها الخاصة . . انها هى التى تتزوج فمالهم ومالها . .

ومرت الايام بسرعة . . وقد لاقى شريف بعض المتاعب في إعلان إسلامه . . ربما لأن كل من كان يقابلهم من المسؤولين عن اتخاذ الإجراءات كانوا يواجهونه بالشك في نياته . . لماذا يريد يهودى أن يعلن إسلامه . . وكان دائما لبقا في كسب ثقتهم . . كان يقول انه مصرى . . ولد في مصر وعاش في مصر ولم تظهر عائلته من أيام جده وجد جده إلا في مصر . . ومصر هى التى تدفعه إلى الاسلام . . وقد وجد نفسه يحفظ تلاوة الفاتحة وكثيرا من آيات القرآن قبل أن يقرر إعلان إسلامه . . ويتردد على زيارة حى الحسين لا لمجرد تناول طعام الكباب في مطعم الدهان بل ليكون قريبا من مسجد الحسين . . فهو يحس به كأنه شعار من شعارات وطنية . . وكان في بعض اللقاءات يزيد المصارحة بأنه سيتزوج مصرية مسلمة . . كأنه لا يريد أن يضبط وهو يستغل إسلامه في عمل خفى . . وفى النهاية . . ماذا يصير الإسلام بانضمام أى فرد تحت لوائه . . والنيات في علم الله . . ولذلك تم إعلان إسلام شريف الهنداوى . .

وقد كان شريف خلال تلك الايام قد زار حاخام اليهود . . وأبلغه انه قرر أن يعلن إسلامه . . لا لأن إجراءات الانتقال من دين إلى دين تفرض

أبلاغ وعلم قيادة الدين الآخر . . . ولكن لأن شريف لا يريد أن يبدو كأنه يهرب من دينه الذي يجمع كل أهله . . . ولكن كل شيء يمكن أن يتم بالمصارحة والاتفاق . . . والحاخام يقدر أن الدنيا مصالحة . . . وقد تكون مصلحة اليهودى أن يدعى الاسلام . . . أو من مصلحة مسلم أن يدعى المسيحية . . . أو اليهودية . . . ومهما اشتدت المصالح فهي لا تؤثر في الدين الذي يؤمن به الفرد . . . مادام الايمان ليس هو الدافع إلى تغيير دين . . . بدين . . . لذلك فقد استمع الحاخام إلى شريف في هدوء . . . ولم يجادله أو ينصده إلا في حدود ما يفرضه عليه مركزه من رسميات . . . وقام يودعه بنفس الحرارة التي كان يودعه بها دائما كلما زاره . . . كأنه مطمئن إلى أنه سيبقى يهوديا

ومرت الأيام بسرعة وتحدد يوم عقد القران . . .

وكانت ناهد مستعدة أن تترك بيتها وتعقد قرانها بشريف في أى مكان . . . ولكن كان يغلبها تفضيلها أن يعقد القران في بيتها . . . بيت العروس . . . حتى لا تفقد شيئا من تقاليد العائلات . . . وحتى يكون زوجها صريحا كاملا . . . وأختها بدأت تستسلم لارادتها . . . وقبلت هى وزوجها أن يعقد القران في البيت . . . ولكنهما اشترطا ألا يوجها الدعوة إلى غريب حتى من أبناء العمومة وأبناء الخيلان . . . كأنهما يريدان أن يخفيا فضيحة تمس العائلة كلها . . . ولذلك لم يجلس حولها مع زوجها شريف إلا المازون وأختها وزوجها وأولادهما . . . وأفراد عائلة شريف . . . فقد صمم على أن يدعو عائلته . . . أمه وأبوه وأخته الكبرى وزوجها . . . انهم موافقون على هذا الزواج فلماذا لا ندعومهم . . . ولكنه لم يدع أخته الصغرى المتزوجة من مسلم . . . لأنها تعيش خارج مصر وليس هناك حفل عام كبير يفرض دعوتها وتكليفها بمتاعب السفر ونفقاته . . . أن اليهود يقدرون دائما حساب النفقات في كل مناسبة . . .

ولم تكن ناهد قد التقت بعائلة شريف أو عرفت أحدا منهم حتى بعد أن أعلنت خطوبتها إلى ابنهم شريف . . . وكانت تفترض أن العائلة كلها قد ثارت على الابن الذي خرج عن ديانته وأعلن إسلامه وقاطعته وطردته من

بيتها . . . ولعل العائلة ثارت عليه أياما ثم عادت واستسلمت له مقدره دوافعه . . . وهذا يحدث دائما . . . إنها تعرف كثيرا من المسيحيين أعلنوا إسلامهم للزواج من المسلمات . . . وكانت العائلات تثور ثم تعود وتضم ابنها إلى حياتها رغم أنه خرج عن دينها . . . بل تعرف مسيحيات تزوجن من مسلمين وهن محتفظات بديانتهم دون أن يضطرون إلى اعتناق الإسلام ورغم ذلك تثور العائلة وتحاول وقف هذا الزواج . . . إلى أن ينتصر الحب الذي جمع بين الابنة والرجل الذي اختارته فتستسلم العائلة . . . تستسلم للحب . . . حتى تظل محتفظة بابنتها . . . وقد كانت تعتقد أن اليهود يعتبرون أكثر تطرفا في التمسك بديانتهم والتحزب لها . . . ولكنها تعرف أن كثيرا من اليهوديات قد تزوجن من مسلمين حتى في مصر . . . بل أنها قرأت عن انتشار حالة زواج بنات اسرائيل من عرب فلسطين حتى أن الحكومة الاسرائيلية قامت بحملة ضخمة لوقف هذه الزيجات . . . حتى مطمئن إلى أن أولاد بنات اسرائيل سينشأون يهودا . . . لا مسلمين ولا مسيحيين كابائهم . . . ولعل هذا كان الدافع لحاخام اسرائيل لاصدار قراره بأن تنسب ديانة الابن لأمه لا لأبيه . . . هذا بعكس البنات العرب في فلسطين . . . فهن يرفضن الزواج بأى اسرائيلى يهودى مهما أحاط بهذا الزواج من دوافع . . . ربما لأن المسلمات أكثر تمسكا وأشد ارتباطا بدينهن من اليهوديات . . . ودين المسلمات يحرم عليهن الزواج بغير مسلم . . . ولأن الاسلام في فلسطين لم يعد محصورا في الايمان بالله بل أصبح يشمل الارتباط بالوطن . . . وربما أيضا لأن الرجل في اسرائيل لم يعد يستطيع أن يقدم على إعلان إسلامه . . . لأن خروجه عن دينه أصبح يعنى خروجه عن وطنه . . . وايضا لم ينتشر الزواج المدني الذى لا يحسب حساب الأديان في فلسطين كما انتشر في لبنان مثلا بين المسلمين والمسيحيين . . . لأن الإسلام والمسيحية يمكن أن يتعايشا في لبنان ولكن الإسلام واليهودية لا يمكن أن يتعايشا في فلسطين أى في اسرائيل . . .

ولهذا كله . . . ولكثرة ما قرأت ناهد عن حالة اليهود في العالم كله منذ عرفت شريف . . . لم تطلب منه أن يقدمها إلى عائلته أو يقدم عائلته إليها . . .

إلى أن كان يوم عقد القران . . . والتقت ناهد بهم والتقوا بها وكل منهم ينظر إلى الآخر مبجلًا كأنه يبحلق في مخلوق عجيب يحاول أن يكتشف سره . . . وناهد تحكم عليهم . . . انها عائلة محترمة . . . تبدو كأنها لا ينقصها شيء رغم سنوات العزلة التي يعيشها اليهود في مصر . . . وشخصياتهم واحاديثهم وحتى اختيار النساء لثيابهن التي يبدون بها كلها منطلقة من صميم الشخصية المصرية والواقع المصرى والذوق المصرى . . . وتجمع بين الثقافة وتبرق بالذكاء ككل ما في مصر . . . حتى أنك لاتستطيع أن تعرف انهم يهود إلا إذا سألتهم أو تقصيت عنهم . . .

ولكن ناهد تحس وهى بينهم أنها غريبة عنهم . . . لا تستطيع أن تحس بأى احساس يجذبها اليهم . . . أو يدمجها فيهم بعد أن أصبحت زوجة لابنهم شريف . . . والاحاديث كلمات مقطوعة وسريعة كمجرد اضطرار كل منهم إلى إطلاق صوته . . . ولعلها احست باقتراب إلى أم شريف . . . انها أكثر طبيعية وأكثر صدقا في تعبيرها عن حنانها لناهد . . . ربما لأنها عجوز . . . وقد قالت لها وهى بجانها . . .

- لقد احببتك قبل أن أراك لأنى احسست بعدى حب ابنى لك . . .

انها صريحة . . . تحبها لأن ابنها يحبها لالذاتها . . .

وقد انتهى الحفل سريعا مع انتهاء المأذون من كتابة العقد . . . وقد وقع زوج اختها على العقد كشاهد دون أن يبتسم وكأنه يبصق امضاءه . . . وهم في حاجة إلى توقيع شاهد آخر . . . وليس بينهم من الرجال سوى والد شريف وزوج اخته . . . وكلاهما لا يجد الجراة ليعرض امضاءه على عقد زواج إسلامى وكل منهما يهودى . . . إلى أن شد شريف ورقة الزواج من امام المأذون ووضعتها امام زوج اخته وهو يقول له مبتسما :

- شرفنا بامضائك يانا حوم . . .

انه يعلم أن ليس في الشرع ما يشترط أن يكون شاهدا الزواج من المسلمين . . . وهو يعتمد أن يحقق التوازن بين المسلمين واليهود في الشهادة على عقد زواجه . . . لقد وقع زوج اخت ناهد وزوج اخته . . .

وانفض الحفل . . . لقد كان حفلا قصيرا باردا . . . ولم تحاول ناهد حتى أن تهتم بما تقدمه لدعويها . . . مجرد اكواب عادية من المربطات العادية وصينية تجمع قطعاً من الحلوى والشيكولاتة والجاتوه . . . كأنها تشترك مع زوجها في تعود عدم الانفاق على المظاهر إلا في حدود الحاجة إليها . . . وما قدمته كان يكفى . . . انه حفل كأنه اجتماع لكتابة عقد شركة يجمع بين بلدين مختلفين . . .

وبعد انصراف المدعويين . . . اخذ شريف زوجته وانصرف بها . . . ولم تكن هناك أى مشكلة تواجههما . . . فقد كان يعيش في شقة ينفرد بها عن افراد عائلته . . . ولم تطلب ناهد تغيير أى شيء من أثاث هذه الشقة الا حجرة النوم . . . إنها تريد أن تنام مع زوجها على فراش لم يطأه جسد امرأة أخرى قبلها . . . حتى لو كان ما تتصوره عن ايامه السابقة مجرد اوهام . . . وقد اختارت قطع أثاث الحجرة في منتهى البساطة . . . لم تعتمد اختيار القطع الفخمة رغم أن زوجها يستطيع أن يدفع ثمن كل ما هو فخم . . . انها بطبيعتها تحب البساطة . . .

ولكنهما مع الأيام بدأ يعانيان وضعهما في المجتمع الذى يحيط بهما . . . ان عائلتها واقاربها لم يقبلوا على زيارتها مهنيين كما هى العادة . . . والذين زاروها منهم جاعوا كأن كل دوافعهم هى الفرجة عليها وعلى زوجها . . . المسلمة التى تزوجت يهوديا . . . حتى عندما دعوا عبد الله نور الدين صاحب دكان الجواهرجى الذى يشاركه فيه شريف . . . جاء وحده بلا زوجته واعتذر عنها بمرضها . . . ورغم المجهود المتفعل الذى كان يبذله ليربطهما بفرحته بهما وتهنئته لهما إلا أن عينيه كانتا تفضحانه وهو ينقلهما بينهما وبينه كأنه يتفرج عليهما ويحاول أن يكتشف ما جذب أحدهما إلى

الأخر . . أما أفراد عائلة شريف وأقاربه فقد كانوا أكثر جرأة في الاقبال عليهما وأكثر حرصا على توثيق الصلات بهما . . ولكن ناهد لا تستطيع أن تندمج فيهم . . ولا تزال تحس وهي تستقبلهم بثقل المسئوليات العائلية . . أنهم كلهم يهود . . ورغم أن احساسها بهم ليس مركزا على أنهم يهود إلا أنها تحس بفواصل يفصلها عنهم . . كان لهم دنيا أخرى لا تراها ويعيشون في أسرار لا تعرفها . . وربما كان مما ضايق ناهد أكثر أن بعض النساء التي كانت تعرفهن وتتعمد تجاهلهن والابتعاد عنهن لاحساسها بأنهن تافهات منحلات ، كن يقبلن عليها ويحاولن فرض أنفسهن عليها واكتساب صداقتها بتوالي زيارتها والسؤال عنها . . كأنهن اعتبرن أنها في دنياهن . . دنيا المغامرات العاطفية والتحرر من التقاليد والمظاهر المحترمة . . لمجرد أنها تزوجت من يهودى حتى لو كان قد أسلم . . لمجرد أنه أصبح معروفا أن لها قصة حب . . ولكنها لم تضعف أمامهن . . ولا تزال تتعمد تجاهلهن وابعادهن . .

إلى أن استطاعت ناهد أن تتغلب على هذا النقص الاجتماعى الذى تعانیه هي وشريف . . فقد كانت قد انتقلت إلى العمل في مكتبة أجنبية تابعة للسفارة الأمريكية . . كعادتها في التنقل من مجال إلى مجال بحكم هوايتها للتجربة . . وقد استطاعت كالعادة أن تنجح وتثبت شخصيتها الدراسية في هذا العمل الجديد . . واكتسبت من الأجانب . . ولا يميز أى واحد منهم عن الآخر أنه مسلم أو مسيحي أو يهودى أو من البوذيين . . كل ما يعرف عن كل منهم أنه أمريكى أو قرشى أو بريطانى أو هندى أو من بلاد الوراق . . واستراحت لهذا المجتمع . . وبدأت تدعو أفرادها إلى بيتها وتلبى دعواتهم . . وتتطلق معهم هي وزوجها شريف في نزاهات ورحلات وسهرات . . وهؤلاء الأجانب لا يعرفون أنها مسلمة وأن زوجها كان يهوديا . . وحتى لو عرفوا لا يهتمون ويعتمدون على ما يظهر منهما وعليهما في تحديد العلاقة معهما . . أنهم يكتفون بمعرفة أنهما زوج وزوجة . . وفي الوقت نفسه كان شريف أيضا له اتصالات ببعض الأجانب من رجال الأعمال . . وقد يكون بينهم يهود . . وبدأ هو الآخر يدعوهم ويلبى دعواتهم

بمصاحبة ناهد . . وعاشا سعيدين هانئين بمصاحبة هذا المجتمع الأجنبى . .

أما فيما بينهم فلم يكن لقصتهما أى أثر على حياتهما . . ولم يحسا بأى فارق بينهما لأنها مسلمة ولأنه كان يهوديا حتى وقت قريب . . وشريف لا يمارس فروض الاسلام . . وعلى الأخص لا يصلى الفروض الخمسة . . ولا يستسلم للاتكال على الله وترديد آيات القرآن والدعوات كعادة كل المسلمين . . وكان يمكن أن تلاحظ تجاهله التعبير عن إسلامه وتدفعه إلى أداء فروض الاسلام . . حتى تقاوم الاحساس بأنه لم يلجأ إلى الاسلام ايمانا به إنما كمجرد إجراء لإنهاء عقد زواجه بها . . اشتراها بإسلامه . . ولكن كل هذا لم يخطر على بالها . . وترى في شريف مسلما كباقي المسلمين . . قهى نفسها لا تصل ولا فرضا واحدا من الفروض الخمسة . . ولا تتبع إلا صيام شهر رمضان . . وربما كانت تتبع الصيام للامان بجذواه الصحية وبحكم تعودها لا لمجرد الخضوع لما فرضه الله . . وشريف أيضا يشاركها صيام رمضان . . ولم يخطر على بالها أبدا أن تتهمه بأنه ليس صائما إلا وهو يجانبها داخل البيت فاذا ابتعد عنها وخرج وحده إلى عمله فربما كان يسلى صيامه ولو بالتدخين . . يكفى أنها تراه صائما . . ولم يحدث أبدا أن جمعهما حديث حول الأديان . . سواء عن الاسلام أو عن اليهودية أو عن أى دين آخر . . لا تعدا . . ولكن لأنه لا يخطر على بال أحدهما ولا يحيره أى دين . . أن الأديان أوحى بها الله لإسعاد خلقه . . وهما من السعداء . . إلى أن كان يوم . .

ودخل عليها شريف والفرحة تزغرد فوق كل ملامحه وقال :

- لقد جاء خمسة من أقاربى وثلاثة من أصدقائى من اسرائيل . . وقد ذهبوا بمجرد وصولهم لزيارة بابا وأخواتى . . وذهبت إليهم هناك . . لقد مرت أعوام طويلة لم أرهم . . ورغم أنهم شاخوا إلا أنى أحسست كأن كلا منهم لا يزال شابا وصيبيا . . وعشنا في الذكريات الحلوة . . وقد دعوتهم لتناول العشاء معنا غدا . .

وقالت ناهد كأنها فوجئت :

- لماذا جاعوا .

وقال شريف كأنه يلومها :

- ألا تعلمين أن الحدود فتحت بين مصر وإسرائيل ولم يعد هناك ما يفرق بين الأقارب والأصدقاء . . . كلنا الآن نعيش وكأننا في بلد واحد . .

وقالت وهي ساهمة :

- وهل يعلمون حكايتنا . .

وقال شريف في نفور كأن ناهد تجرح فرحته :

- أى حكاية ؟

قالت كأنها تذكرت حكاية كانت قد نسيتها :

- حكاية أنك لم تعد يهوديا وأصبحت مسلما . .

وصاح في غف :

- ما دخلهم في هذه الحكاية وماذا يهمهم منا . . سواء كنت يهوديا أو مسلما فنحن أقارب وأصدقاء . . وقالت كأنها مستسلمة :

- لك حق . .

وقال وقد عادت إليه كل فرحته :

- انى أريد أن أقدم لهم كل ما افتقدوه في مصر . . خصوصا الملوخية . .

ولأول مرة وعلى غير عادته بدأ شريف يقوم بنفسه بأعداد وليمة . . ويتعمد الإشراف والتساؤل عن كل شيء . . وكان أغرب ما قام به أن حرص على تقديم زجاجات مشروب البيرة مصنوعة في مصر وجمع معها علب بيرة مصنوعة في إسرائيل . .

وكانت ناهد حائرة وهي تستقبل المدعوين . . انها تفتعل الفرحة وتفتعل الترحيب وتقاوم احساسا غريبا بأنها تخاف على بيتها من أن يستولى عليه هؤلاء المدعون . .

وقد سمعت شريف وهو يقدم أكواب البيرة يقول لهم :

- كل منكم يشرب البيرة المصرية . . وأنا وحدى ومن يقيم معى في مصر يشرب البيرة الاسرائيلية . . حتى يشعر كل منا بأنه يعيش في بلد الآخر . . لقد عدنا واجتمعنا كلنا في وطن واحد . .

وقد كانت الأحاديث تدور بينهم أحيانا بالعربية وأحيانا بالانجليزية وأحيانا بالعبرية . . وناهد تعلم أن شريف لا يتكلم العبرية ولكنه يفهمها . . وكانت كلها أحاديث بينهم وبين بعض يشترك فيها شريف وعائلته . . أما هي فلا يعتمد أحد منهم بذل أى مجهود في التحدث إليها . . حتى الزوجات المدعوات كن يتحدثن بعضهن مع بعض ولا يوجهن لها الحديث إلا إذا أذكرن أنه يجب أن يشركنها ولو بكلمة . . وقد سألت ناهد إحدى اللاتي أطفن عليها بالكلام معها :

- واين أولادك . . لماذا لم يأتون معك إلى مصر . . وقالت الام

بساحة :

- انهم لا يشعرون بالوحشة إلى مصر كما عشنا نحن نشعر بها . . وقد ولدوا في إسرائيل . . وقد حدثتهم كثيرا عن مصر ولكنهم لم يعيشوا فيها . . وقد وعدوا بالحضور إلى مصر في العام القادم ليتفرجوا على بلد اهلهم . .

وسكنت ناهد كأنها تبتلع هذا الكلام . . . وقد مضت الدعوة وهي تحس
بوحدة عجيبة كان هؤلاء الناس استولوا فعلا على بيتها ولا يحتاجون إليها
إلا لتلبية الطلبات وتقديم الطعام . . . كأنها مجرد خادمة . . . إنها ليست ست
البيت . . . لقد أصبحت في هذه الساعات خادمة البيت . . .

وبعد أن انصرفوا انطلق شريف بفرحته يروى لها ما سمعه من هذا
أو ذاك . . . وهي تستمع إليه دون تعليق ولا اهتمام . . . وربما أحس بعدم
ترحيبها بهذه الدعوة فلم يكررها . . . ولكن لاشك أنه كان على اتصال دائم
بمعارفه الذين جاءوا إلى مصر . . . وكان أحيانا يعود ويروى لها أخبار لقائه
بهم ولكنه غالبا لا يروى شيئا رغم احساسها بأنه كان معهم . . . وبعد ثلاث
أسابيع فاجأها مرة ثانية قائلا في فرحة :

- سنسافر إلى إسرائيل بعد غد . . .

وارتعشت رموشها فوق عينيها كأنها تطرد سحابة تعميها ثم قالت
وهي تحاول أن تكون هادئة :

- لن أسافر معك . . .

وصاح غاضبا في عنف :

- لماذا . . . لماذا لا تريدان زيارة إسرائيل . . . لقد انتهى ما كان وتحقق
الافتتاح . . . وآلاف من المصريين مسلمين وأقباط يزورون إسرائيل .
ومرسي بيه عبد السميع بجلالة قدره سيزور إسرائيل . . . وقد سبق أن
اتصل بي وطلب مني أن أعرفه بأصدقائي الذين جاءوا من إسرائيل وأقا
لهم دعوة فخمة . . .

وقالت مقاطعة وهي تبذل جهدا للاحتفاظ بهدوئها مع ابتسامة
ساخرة :

- إن الآفا من اليهود يزورون مصر . . . ولكن لا يزورها من المصريين
إلا من يعتقد أنه يستطيع أن يحقق مصلحة هناك . . . ومرسي عبد السفينع
هو مقال بناء ولعله يعتقد أن إسرائيل ستقيم مبانى كثيرة في مصر ويحاول
أن يكتسب ودها في علاقته بها . . . هكذا أثبتت التقارير والدراسات . . .

وقال في حدة :

- إذا كانت زيارة إسرائيل لا تكون إلا لتحقيق مصلحة . . . فيجب أن
تعلم أن تجار الذهب والمجوهرات . . . والصياغ . . . وأساتذة كحت الماس
الطام وتحويله إلى قصوص . . . و . . . و . . . كلهم سواء كانوا في مصر أو من
أى بلد في العالم قد أصبحوا يقيمون في إسرائيل . . . وأنا صانع وجواهرجى
وسأحقق مكاسب ضخمة بالاتصال بهم . . .

وقالت في برود :

- اذهب اليهم وحدك . . . فهو عملك وليس عملى . . . ولا شك أنك تعلم
أنى لم أكن سعيدة بزيارتهم لنا ولن أكون سعيدة بأن أذهب اليهم . . .

وسافر شريف إلى إسرائيل وحده . . .

وناهد رغم أن دراستها شملت العلوم السياسية . . . ورغم أن من
أدبها الرغبة في الاطلاع واستيعاب كل الشئون التي تخطر على فكرها بما
فيها الشئون السياسية . . . إلا أنها لم تشترك أبدا في أى تحرك سياسى ولم
يعرف عنها أبدا أنها صاحبة موقف ولا حتى رأى سياسى . . . أنها لا تتعمد
الاشتراك أبدا في أى أحداث سياسية كأنها تكتفى بالوصول إلى المنطق
السياسى . . . تحدد به اقتناعا سياسيا تحتفظ به داخل منطقها الخاص . . .
وهذا المنطق كان يوحى إلى عقلها منذ زمان طويل بوقف الحرب بين مصر
إسرائيل . . . ولكن نفس المنطق لم يكن يصل بها إلى الثقة في إسرائيل . . .
أو الاقتناع بكيانها كما هو قائم وكما وصلت به إليه . . . كأنه منطق ست

البيت التي لم تعد تطيق ثوبا من ثيابها ولكنها لا تمرقه وترميه وتتخلص منه ولكنها تغيره وتعديل فيه إلى أن تقتنع به وترتاح إليه . .

فلم تكن المظاهر السياسية والدوافع الوطنية وحدها هي التي دفعت ناهد إلى رفض زيارة إسرائيل . . ولكنه عدم اقتناعها بوضع إسرائيل وعدم ارتياحها لها . .

وقد عاد شريف من إسرائيل بعد اسبوعين . . وأخذ يحكي لناهد عما شاهده وسمعه . . وقالت له بعد أن استمعت إليه طويلا :

- ألم تحاول أن تعرف منهم سر اعتداءاتهم على العرب وتحاول معهم البحث عن طريق لوقف هذه الاعتداءات . .

وصاح شريف في حماس :

- انها ليست اعتداءات . . انه دفاع عن النفس . . وكل يهودى يعيش في إسرائيل وهو في حالة خوف . . ولا تتصورى عدد من ضاع منهم سواء في حرب أو بلا حرب . .

وقالت كأنها تلومه :

- الذين ضاعوا من العرب اضعاف الاضعاف . . حتى أن إسرائيل اليوم تبادل ثلاثة من اليهود الذين يأسرهم العرب بثلاثة آلاف عربى يأسرونهم . . وحتى أصبح العرب هم الذين يطالبون بالسلام واليهود هم الذين يرفضون السلام . .

وقال شريف كأنه ثائر :

- أى سلام هذا . . ان هذا الوطن لا يمكن أن يكون إلا وطننا لليهود أو وطننا للعرب . . لعلك تتصورين لهذا الوطن نظما ديمقراطية تجمع بين الجانبين . . فاعلمى أن العرب يتزايدون في الانجاب كالدود . . كل امرأة

عربية تنجب سبعا أو تسعا أو عشرة من الأولاد . . وسيأتى اليوم الذى يسيطر فيه العرب على اليهود ويحكمون إسرائيل باسم الأغلبية الديمقراطية . . فحتى الديمقراطية لاتصون مستقبل اليهود إذا عاشوا مع العرب . .

وقالت ناهد وهي تنظر إليه بازدراء كأنها تتباهى بثقافتها :

- ان النساء العرب ينجن أسلحة . . كل ابن لها هو سلاح لضمان المستقبل مهما كلفها إنجاب . . وانجاب الأولاد غال يكلف الكثير كالثمن الذى يدفع لاستيراد الأسلحة . . ويوم يتحقق السلام العادل فريما تعدت النساء الراحة من انجاب كل هؤلاء الأولاد . .

وصاح شريف وكأنه يهرب من الكلام :

- ان هذه المواضيع لم تكن مجالا للكلام مع من قابلتهم في إسرائيل . . ولم تكن هناك مناسبة له . .

وقالت ناهد ساخرة :

- على كل حال فانا لم نسمع عن أى يهودى من أصل مصرى له شأن أو أى قيمة في المراكز القيادية بإسرائيل بحيث يمكن أن تكون هناك جدوى من مناقشته في مثل هذا الحديث . . ان كل يهود مصر بل كل اليهود العرب كانوا يعتبرون من أغنى يهود الدنيا . . فقد كانوا يعيشون في الوطن العربى ولهم قيمة تصل إلى قمة السيطرة الاقتصادية . . ثم ذهبوا إلى إسرائيل ليعيشوا بلا قيمة . . وكانهم مجرد أجراء لتأدية الأعمال التى يحتاج إليها يهود أوروبا . . كأنهم الزنوج التى كانت تهربهم أمريكا إلى أرضها لتسخيرهم كأيد عاملة . . كأنهم زنوج الفلاشا الذين هربتهم إسرائيل أخيرا من الحبشة ليكونوا عبيدا ليهود أوروبا وأمريكا . .

وصرخ شريف :

- ان يهود مصر لم يختطفوا .. لقد اختاروا .. ومن حق كل انسان ان يختار وطنه .. بل ان القوانين الحديثة تتيح لكل يهودى ان يجمع بين وطنين ويحمل شخصيتين وبطاقتين ..

وقالت وهى تضحك ضحكة مرة :

- لعلك تفكر فى ان تحمل بطاقة مصرية وبطاقة اسرائيلية ..

ولم يرد شريف عليها واختفى من امامها كأنه يهرب منها ..

ومرت أسابيع وقد بدا يعيشان حياة كأنها حياة أخرى .. وان كان كل منهما يعتمد ألا يثير مع الآخر حديثا يدفعهما إلى مثل هذه المناقشات الحادة ..

إلى ان جاء شريف يبلغها انه مضطر للسفر مرة أخرى إلى اسرائيل .. وسكنت .. وسافر وحده .. وجدت نفسها بعد ان سافر زوجها تقوم وهى فى حالة عادية كأنها لا تفكر فيما يمكن ان يحيرها أو يثيرها وجمعت ثيابها ولوازمها فى حقيبتين .. وحملتهما وذهبت لتقيم فى بيت أختها ..

واستقبلتها أختها فى فرحة هائلة .. كأنها فى انتظار عودتها .. وفتحت لها غرفتها لتقيم فيها كما تعودت .. وبدأت الأخت وزوجها يسألانها عما حدث .. وردت عليهما ناهد فى كلمتين دون ان تترك لهما مجالاً للمناقشات أو لمزيد من التساؤلات .. لقد عودتهما ألا يحاسبها أو يتدخل فى شئونها أحد ..

وقد عاد شريف من اسرائيل بعد اسبوع .. وهرع ملهوا إلى بيته .. لقد حاول أكثر من مرة أن يتصل بزوجته بالتليفون وهو هناك فلم يكن يجدها فى البيت .. والقى بحقيبته .. وجرى إليها .. لأيد أنها فى بيت أختها .. واستقبلته فى هدوء .. وتركتة يقبل وجنتيها دون أن تبادل بقبلاتهما .. وقال فى صمت مرتعش :

- لماذا أنت هنا ؟

وقالت مبتسمة ابتسامة هادئة طبيعية :

- لأنى سأبقى هنا ..

وصاح :

- لماذا .. ماذا حدث .. ماذا تريدين ؟

وشدته من يده وهى محتفظة بابتسامتها وأجلسته على مقعد كانها توفر له الراحة وتوصيه باحتمال ما سيسمعه .. وقالت :

- ان حكايتنا كانت حكاية بينى وبينك انفصلنا بها عن المجتمع كله .. المجتمع الذى يحيط بى ويحيط بك .. وكانت كل دوافعها هو اقتناعى بك واقتناعك بى .. واحساسى بك واحساسك بى .. وقد فقدت اقتناعى واحساسى بك .. لذلك يجب ان نفصل .. لأنه ليس لدينا شيء آخر يجمعنا سواء الاقتناع أو الاحساس .. وكما اتخذنا قرار الزواج وحدنا فانا وحدنا نتخذ قرار الانفصال .. الطلاق .. ولا تحاول ان تسألنى لماذا .. كل ما قلته لك هو مجرد الاقتناع والاحساس ..

وأطال شريف فى حديث يحاول به أن يحتفظ باقتناعها واحساسها به كما كان .. ولكنها مصممة .. وهدهوها الكامل يغيطه ويثيره حتى قال كأنه يهددها :

- لقد أسلمت لاتزوجك .. فماذا اصنع بالاسلام بعد ان تتركينى .. وقالت فى لهجة حانية :

- ان الدين هو التعبير عما بينك وبين الله .. لا مجرد التعبير عما بينى وبينك .. وأنت حر فى التعبير عما بينك وبين الله ..

ونظر نفسه قافزا كأنه يهرب من جحيم .. وهى تنظر وراءه مودعة فى همت حزين .. كأنها تودع نهاية فشل ..

لقد فشلت لأول مرة فى حياتها ..



أجل ابن الشحاذ ..

ابدا .. ولكن لعله كان يهرب من الشحاذة - خصوصا بعد أن كبر ولم يعد طفلا يثير شفقة الناس - خوفا من أن يفكر أبيه يوما في أن يقوم بتشويهه ويترساقه أو ذراعه ليضمن له استئثار شفقة الناس .. ثم إن الشحاذة ليست مهنة سليمة مهما ارتفع دخلها .. إنها مهنة تفرض صبر طويل على حالة من الذل والهوان يمثلها الشحاذ ساعات طويلة وهو مجمد في داخلها وملقى على الرصيف كأنه كوم من الزبالاة ..

وكان يقيم مع والده في عشة صغيرة من الصفيح ملقاة فوق رمال سحراء خلف قرافة المجاورين .. وكان على مقربة عشة أخرى يقيم فيها الشيخ عاشور مقرئ المقابر .. وعلى الناصية الأخرى تقيم أم فردوس ومعها ابنتها الطفلة فردوس في حفرة واسعة من الأرض يغطونها بقطع من القماش والواح من الصفيح .. وكان يلح رجالا يأتون إلى حيهم في المساء ويلقون بأنفسهم في إحدى الحفر المنتشرة في الرمال وينامون حتى الصباح ثم يختفون .. وقد يعودون أو لا يعودون .. وكان يلح أحيانا بعض هؤلاء الرجال ينزلق الواحد منهم إلى حفرة أم فردوس ويغيب ساعة ثم يظهر ويختفى .. وعرف فيما بعد أن أم فردوس تبغ نفسها لمن يهبط إليها في الحفرة نظير خمسة قروش وأحيانا مقابل قرشين .. ولا يدري هل تبغ معها ابنتها أيضا أم لاتزال تبخل بها عن امتاع الرجال ..

وكان يعيش هذا المجتمع كأنه مجتمع طبيعي .. مجتمع الدنيا كلها .. لا يستطيع أن يفرق فيه بين الحرام والحلال .. وبين الصح والخطأ .. كل ما هناك أن الدنيا فلوس .. والذين يعيشون في البيوت معهم من الفلوس أكثر مما مع الذين يعيشون في العشش .. ولكن لا فارق بين الناس .. كلهم ناس .. وكان يحب أم فردوس ويحس بها كأنها أمه .. وهي أيضا كانت تحبه وتدله بضحكاتها وتضفي عليه كل ما ينقصه من رعاية الأم .. وتدعوه كثيرا ليأكل معها هي وابنتها إذا وجدت عندها يوما وأما ليشاركهما الأكل .. وهي التي كانت تحب له جلبابه القديم الذي كان دائما ممزقا حتى أصبح كله من خيوط أم فردوس .. وكانت هي أول من

منذ وعى منصور الحياة وهو يعيش مع أب شحاذ .. يحترف الشحاذة .. ثم عرف أن ذراع أبيه المبتورة وكفحه الموعج وساقه الملتوية الملوصة ومظهره الغلبان المشوه ليس نتيجة حادث وقع له أو نتيجة قدر ولد به .. ولكنهم أخذوه وهو طفل وشوهوه حتى يستطيع أن يحترف الشحاذة ويحقق النجاح في حياته كشحاذ .. وأمه أيضا كانت شحاذة ولكنها ماتت وهو لا يزال في العام الأول من عمره .. ولا يخطر على باله أنها ماتت من الجوع فرغم أنهم شحاذون فإن الجوع لم يطرا على حياتهم ابدا .. ربما ماتت من ثقل حياتها مع أبيه .. أن مجرد المعيشة معه تزهق الروح .. وقد كان أبوه يصحبه معه للشحاذة منذ كان في الثانية من عمره .. والحمد لله أن أباه لم يفكر في أن يجري له عمليات تشويه حتى يعده ليكون شحاذا ناجحا .. ولكنه اعتمد على ادعاء العمى وإن هذا الابن الصغير هو الذي يقوده .. مع وضع هذا الطفل في مظهر الفقر حتى أنه كان يلبسه جلبابا قذرا ممزقا لا يكاد يحل الشتاء حتى يرتعش من تحته .. وأبوه يبارك رعشته لأنها تدر عليه دخلا أكبر من الشحاذة بإثارة اشفاق الناس ..

ومنذ البداية وهو لا يهرب من الشحاذة ولا يطيقها حتى أنه بعد أن كبر قليلا كان يتعمد أحيانا أن يهرب من أبيه قبل أن يستيقظ من النوم حتى لا يأخذه معه في جولة كل يوم .. وليس ذلك لأن الله وهبه إحساسا بالاعتزاز بالنفس يرفعه عن أن يكون شحاذا .. أنه إلى اليوم لا يزال يعتبر الشحاذة مهنة شريفة محترمة تعتمد على فن وذكاء كأي مهنة أخرى .. وتعتمد على موهبة في التمثيل كموهبة الممثلين على المسرح أو على شاشة السينما .. والفرق أن الشحاذ يمثل على رصيف الشارع ويمثل دورا واحدا لا ينتهي

وضع في قدميه حذاء لا يدرى أين وجدته . . وكان حذاء واسعا يجره بقدميه . . وهو فرح به . . وقد وضع قدميه في حذاء قبل أن يضعهما في جورب . . مضت سنوات قبل أن تصل قدميه إلى جورب . . وهو قد تعود منذ البداية أن يمد يده إلى كل ما يستطيع أن يمدّها إليه . . قد يمدّها إلى تقاحة معروضة أمام دكان الفكّهاني . . أو يمدّها إلى حزمة من أعواد الملوخية معروضة أمام دكان الخضروات . . أو يمدّها إلى كيس معلق لدى دكان بقال دون أن يعرف ما فيه ولكن لاشك أن فيه شيئا يؤكل . . وفي مرة مد يده إلى دجاجة صاحبة واستطاع أن يأخذها لنفسه . . إن أغلب ما تمتد إليه يده يحمله إلى أم فردوس ويشاركها فيه . . وقد كان يهوى مد يده أكثر مما يهوى الشحاذة مع أبيه . . ولم يكن يتجرأ على مد يده قبل أن يفكر . . أنه ذكي . . يحسب حساب كل ما حوله . . ولم يحدث أبدا أن ضببت يده الممدودة . . هل ولد ومن طبيعته أن يكون لصا أو نشالا . . لا يهم . . إن السرقة هي نوع من الشحاذة . . ولكن السرقة تغفى الشحاذ من الذل والهوان ومن الصبر الطويل وهو مكوم على الرصيف ككوم الزبالة حتى يستدر أشفاق الناس . . أن اللص هو سيد نفسه ، والناس تحت رحمته وليس هو الذي تحت رحمتهم . .

وهو أيضا يحب الشيخ عاشور ويقضى الليالي أحيانا يسمعه وهو يرتل القرآن لنفسه . . وأحيانا كان يصحبه وهو يطوف بين المقابر إلى أن يدعو أحد إلى مقبرة فيجلس ملتصقا بها ويتلو تلاوة سريعة تختلط كلماتها وترن كأنها عجلات قطار يجرى في منتهى سرعته . . ثم ينتفض واقفا يمد يده ليأخذ أتعابه . . إلا إذا نهره أهل المقبرة وطلبوا منه أن يستمر في التلاوة . . فيعود ويجلس مستسلما ويطلق رنين عجلات القطار . . ولكن الشيخ عاشور معروف بأنه في منتهى البخل . . ولم يمن على منصور أبدا بشيء ولا حتى بلقمة خبز رغم ازدهام عشته دائما بأرغفة العيش التي يجمعها من المقابر . . وعندما كان يسمح له بمصاحبته إلى المقابر كان الأهل أحيانا يشفقون على هذا الصبي الذي يصاحب المرقىء ، وقد يظنون أنه ابنه فيحسنون عليه بقروش بعد أن يكون قد دفعوا أتعاب عاشور . . ثم لا يكاد أن

يخطوان خطوة بعيدا عن المقبرة حتى يمد الشيخ عاشور يده دون أن ينطق بكلمة ويأخذ القروش التي وصلت ليد منصور . . ويستسلم منصور دون أن ينطق بكلمة هو الآخر . . لقد كان الشيخ عاشور يعتقد أنه يمن على منصور بأنه يتركه يستمع إليه أو يصحبه . . وهذا يكفي . . وفي يوم قال منصور للشيخ عاشور في استجداء :

- حفظني ياسيدنا الشيخ . .

وكان يريد فعلا أن يحفظ القرآن . . كانت من طبيعته أن يتطلع إلى اكتساب كل شيء . . وهو يريد أن يكتسب حفظ القرآن . . لم يكن يخطر على باله أن يكون مقرئا هو الآخر كالشيخ عاشور . . ولكنه فقط يريد أن يكتسب شيئا جديدا يضيفه في بناء نفسه . . ومن يدرى . . ربما احتاج يوما أن يثبت أنه حافظ للقرآن . . وقال له الشيخ عاشور كأنه ينهره :

- وماذا يعود عليّ أنا لو حفظتك . . هل تريدني أن أقضى الليالي ألتفك كل كلمة وأهلك لسانى وأحرق دمي وليس لي من نصيب إلا التمتع برؤية وجهك . . قل لأبيك أن يخرج بعض ما عنده ويدفع ما يعوضنى عن تحفيظك . .

ومنصور يعرف أن أباه لا يمكن أن يخرج مليما واحدا ليدفعه لأحد ولا لابنه ولا حتى لنفسه . . فكل حياته وكل ما حوله شحاذة . . إن كل لقمة يأكلها أو يعطيها لابنه ليأكلها لقمة مشحوزة . . وكل ما يستر به جسده وجسد ابنه مشحوز . . حتى لو مرض فهو يستطيع أن يشحذ الدواء . . ورغم ذلك فمنصور يعرف أن أباه قد جمع من الشحاذة قطعا من النقود لاتعد ولا تحصى . . مئات وربما آلاف . . وهو يحتفظ بما جمعه داخل المرتبة التي يمدّها على الأرض وينام عليها وحده . . بينما يترك ابنه ينام على قطعة من الخيش كان قد وجدّها في أكوام الزبالة أو لعله شحذها . . وكان بعد أن يعود إلى العشة في المساء ويجد فيها منصور يجلس قليلا يسترد أنفاسه ثم يسرخ في ابنه :

- أبعد عن وجهي .. ولا أريدك أن تدخل على إلا بعد أن أنام ..
ويخرج منصور من العشة طائعا .. ولكنه كان يستطيع أن يتلصص بعينه
على أبيه من ثقب في لوح الصفيح فيراه يخرجاً سكيناً صغيراً يشق به المرتبة
التي ينام عليها .. ثم يجمع من بين ثنايا جلبابه كمية من النقود يدهسها
داخل المرتبة .. ثم يعود ويخرج من جلبابه أيضاً خيط وابرة ويحك الثقب
الذي فتحه في المرتبة .. ثم يعيد كل شيء إلى مكانه ويمتد فوق المرتبة
وينام .. ينام فوق الكنوز التي يجمعها .. وقد انتفخت هذه المرتبة بما فيها
حتى اضطر أبوه يوماً إلى أن يشحذ مرتبة ثانية يضعها فوق الأولى ويدس
فيها ما يستجد من قطع النقود وينام عليها .. والغريب أن أباه كان يترك
المرتبتين كل صباح ويخرج إلى سوق الشحاذة وهو مطمئن إلى أن أحداً لن
يصل إليهما ليسرق الكنز .. مع أن العشة الصفيح تكفي لمسة يده لنتهار
كلها وتصبح الكنوز في العراء .. لعله كان مطمئناً إلى أن أحداً لا يمكن أن
يصدق أنه يحتفظ في عشته بكنز .. أو ربما كان من تقاليد الحى أن
لا يعتدى أحد من أهله على الآخر أو يقتحم عشته .. وفعل لم يضع مليماً
واحداً مما جمعه أبوه في المرتبة طوال هذا العمر الطويل ..

- واحتر منصور من أين يأتي للشيخ عاشور بثمن تحفيظه القرآن ..
إلى أن لح وهو يجوب الشوارع والحواري جلياباً واسعاً معلقاً على حبل ينتشر
عليه ما يغسل من ثياب إلى أن تجف .. واستطاع أن يمد يده إلى هذا
الجلياب ويجري به إلى الشيخ عاشور ليعطيه له كدفعة من أتعابه .. وقلب
الشيخ عاشور الجلياب بين يديه ولم يسأل منصور من أين أتى به .. ثم
بدأ فوراً في تحفيظه القرآن .. يتلو الآية ليردها وراءه إلى أن يحفظها ..
وبدا معه بتلاوة الفاتحة .. ثم قال له :

- ينقصك مصحف ..

وقال منصور :

- ماذا أفعل بالمصحف وأنا لا أقرأ ..

وصاح الشيخ عاشور في وجهه :

- تتبارك به ولعل الله يرضى عنك ويعينك على حفظ القرآن .. ثم يجب
دائماً أن تعرف ماذا حفظت من المصحف حتى لو كان بمجرد النظر إلى الآية
دون أن تقرها ..

وهمس منصور بينه وبين نفسه .. بسيطة .. إنه يرى كثيراً من
مصاحف القرآن موضوعة فوق المقابر خصوصاً في المدافن الكبيرة
القديمة .. وخرج في الصباح إلى قرافة المجاورين ، وأخذ يطوف بين المقابر
إلى أن استطاع أن يتسلل إلى مدفن واسع كأنه قصر ، ويعرف إنه مدفن
لأحد الباشوات القدامى ، ولا يزال أبناء الباشا وأحفاده يدفنون فيه ..
ووجد على قبر الباشا مصحفاً كبيراً تلمع على غلافه خطوط من ذهب ..
ويبدو أنه مصحف جديد لعل الأحفاد جاءوا به حديثاً أحياء لذكرى
الباشا .. وقرر أن يمد يده إلى هذا المصحف ليتفاحر به أمام الشيخ
عاشور ، ويتباهى بأن الله راض عنه حتى وهبه القدرة على الحصول على
كتابه المقدس في أقخم صورة .. ولكن كيف يحمل هذا المصحف ويخرج به
أمام الناس .. وهذه ذكاؤه بسرعة فنزع مخده موضوعة على أريكة من
أرائك المدفن .. نزعها من الكيس الذي يغطيها .. ووضع مكانها المصحف
الكبير ثم حمل الكيس فوق ظهره وسار به بين الناس .. وطبعاً لم يخطر على
بال أحد أنه يحمل تحفة مسروقة .. وهو مطمئن .. أنه ليس لصاً .. فكتاب
الله لا يمكن أن يسرق .. وهو ملك لكل يد تصل إليه لأنه ليس ملكاً لأحد ،
ولكنه ملك الله ..

وبهر الشيخ عاشور فعلاً وعيناه مبھلقتان في جمال وفخامة المصحف
المطبوع .. ثم وضعه بجانبه وشد مصحفه القديم المتوسط الحجم قائلاً
لمنصور :

- ما جئت به سيكون لي .. وهذا يكفيك ..

وبذل الشيخ عاشور يومها مجهوداً أكبر في تحفيظ منصور ..

إلى أن قال له منصور يوما :

- أريد أن أقرأ ياسيدنا الشيخ .. علمنى القراءة ..

وقال له الشيخ عاشور دون أن يعلق بشيء :

- اذهب إلى الشيخ عبد المولى فى حوش بركات بالمجاورين .

وكان حوش بركات من المرافق القديمة الفخمة .. كأنه قصر من قصور الامراء .. وكان أفراد عائلة بركات من الكرم وسعة العقل حتى إنهم خصصوا جانباً من الحوش الواسع ليكون شبه مدرسة مجانية لتعليم أطفال الفقراء القراءة والكتابة .. وعهدوا بهذه المدرسة إلى الشيخ عبد المولى - بعد أن توفى الشيخ الذى تولاهما قبله - ويدفعون له راتباً شهرياً .. وعندما ذهب منصور إلى الشيخ عبد المولى نظر إليه كأنه يستعرض شكله ثم سأل فى قرف وازدراء :

- ابن من ياواد ؟

وقال منصور وهو يرتعش أمام الشيخ عبد المولى :

- ابن برهوم الاكتع ..

وقال عبد المولى بعد أن بصق بصقتين فى قرف :

- برهوم الشحاذ .. امش من أمامى ، وإن رأيتك مرة ثانية فساقطع رقبتك .. ولكن منصور لم يمش من أمام الشيخ واخذ يتحایل عليه ويبكى حتى يجود عليه بأن يعلمه القراءة والكتابة .. ولكنه فهم من كلام الشيخ أن المدرسة وإن كانت مدرسة خيرية مجانية إلا أنه يجب أن يدفع له .. أن الشيخ يقول أن الطفل كى يتعلم يجب أن يحس بأن أباه يدفع ثمن تعليمه ، فالطفل لا يشعر أبداً بحاجته إلى التعليم .. كل ما يشعر به هو حاجته إلى الهرب من المدرسة ومن الذين يعلمونه .. والشيخ عبد المولى لا يقبل من

الذى يعلمه أقل من جنيته كامل فى أول كل شهر .. علاوة على ما تجود به العائلة وترسله له مع الابن ..

ولكن منصور بعكس ما يقول الشيخ يحس أنه يريد أن يتعلم .. أنه يغار من الأطفال الذين يراهم فى الشوارع يحملون الكتب وحقائب المدرسة .. ويتردد كثيراً على أبواب المدارس ويقف يتفرج على الطلبة الصغار وهو يتمنى أن يكون معهم .. ما ذنبه إذا كان ابن شحاذ حتى يحرم من أن يكون كبقية الأطفال .. إنه يريد أن يتعلم كما يتعلمون .. ولكن .. من أين يأتى بالجنيته الذى يدفعه كل شهر للشيخ عبد المولى .. إنه رغم اعتماده على يده الخفيفة التى يمدّها لكل ما يريد إلا أنه لم يعود حتى اليوم أن يمدّها إلى النقود .. لم يسرق أو ينشل أبداً أى مبلغ من المال .. ووجد نفسه منقاداً إلى فكرة خطرت له .. فذهب إلى حيهم ودخل إلى أم فردوس وطلب منها خطاً وابرة والمقص الذى تحتفظ به .. ثم دخل إلى عشته وأبوه غائب عنها .. وفتح ثقباً فى حافة المرتبة ومد يده فيها وأخرج مجموعة من أوراق النقد الصغير أخذ يعد فيها حتى استكمل الجنيته وبدأ يتعلم القراءة والكتابة .. والشيخ يقول له :

- قل لابيك يفتح يده ولا يحرمنا .. يشحذ لنا كما يشحذ لنفسه ..

ومن يومها أصبح الطريق السهل أمامه هو الطريق إلى مد يده داخل المرتبة .. حتى أنه استطاع أن يحصل على مقص خاص به كما حصل على الابرة والخيط حتى لا يحتاج إلى أم فردوس وتكشف سره .. وقد بدأت يده تمتد إلى أكثر مما يحتاج إليه الشيخ عبد المولى ليعلمه .. لقد بدأ يعطى أيضاً الشيخ عاشور الذى يحفظه القرآن .. وكان يعطى أحياناً أم فردوس لتشتري له قطعة لحم فقد اشتاق أن يمصغ اللحم .. ولا أحد يسأله من أين يأتى بما فى يده .. لم يعود أهل الحى أن يسألوا من أين .. وهو فى نفس الوقت لا يزال يمارس موهبته فى أن يمد يده إلى كل ما يغريه بمد يده خارج المرتبة .. وقد استطاع أن يمد يده إلى عمامه كاملة أخذاً إلى الشيخ عبد المولى هدية له حتى يهتم بتعليمه .. كما استطاع أن يمد يده إلى خذاء

جديد يضع فيه قدميه ولكنه تعذر عليه أن يجد جوربا يمد يده اليه فاشتره
من خزينة المرتبة . . كما لا يزال يعتمد على مد يده لياكل . . فيحصل على
اصناف مما يؤكل يحملها إلى أم فردوس لتعدها له . . وهو حريص على
الاستمرار في حفظ القرآن حتى حفظ منه معظم سورة وآياته . . كما أنه كان
حريصا على تعلم القراءة والكتابة حتى أجادها . .

وهو الآن يريد أن يحصل على شهادة . . الشهادة الابتدائية . . لماذا
لا يحصل عليها كبقية أولاد الناس . . وما ذنبه أنه ابن شحاذ ويقيم في
عشة ملقاة في الرمال بعيدا عن حي المجاورين . .

وقال له الشيخ عبد المولى أنه يستطيع أن يحصل على الشهادة دون
أن يلتحق بمدرسة . . يتقدم إلى الإمتحان من منزله كما يفعل كثير من
الأولاد . . والشهادة تحتاج إلى كتب وأوراق وأقلام . . وقد استطاع أن يمد
يده إلى كثير من الحقائق الدراسية التي يحملها طلبة المدارس الابتدائية
ويجد فيها ما يحتاج إليه . . ولكنه كان أحيانا يضطر أن يمد يده داخل
المرتبة ليحصل على ما يشتري به ما لا تصل إليه يديه . . والشيخ
عبد المولى لا يزال يواليه وإن كان قد رفع أجره إلى ثلاثة جنيهات في
الشهر وما في داخل المرتبة يكفى دائما . .

إلى أن حدث ما حدث . .

فقد كان قد فتح الثقب في المرتبة ومد يده فيه عندما دخل أبوه إلى
العشة فجأة وفي غير موعده ، وما كاد يرى ابنه ويده ممدودة إلى مهبط الكنز
حتى صرخ صرخة مدوية ورفع العكاز الذي يستند عليه وانهاه به على رأس
إبنه . . ولكنه ما كاد يرفع العكاز حتى سقط على الأرض وهو لا يزال يصرخ
بكلمات كالعواء ويشوح بالعكاز ليضرب به . . ومنصور لا يريد أن يهرب
من أمام أبيه إلى خارج العشة . . ويبذل فيه كانه خائف عليه . . ويقول
كلاما ما يستجديه به أن يهدأ ويتفاهم . . وهو يردد :

- اقتلنى يا أبى . . اقتلنى إذا أردت . .

وفي هذه اللحظة كان يمر أمام العشة عدد من الافراد المشردين الذين
تعودوا أن يفدوا على الصحراء ، ويناموا في الحفر ، ويختفوا في الصباح . .
افراد ليسوا من أهل الحى . . وسمعوا الصراخ فأتوا إلى داخل العشة
مستطعين فإذا بهم يرون القروش مدلاة من ثقب المرتبة المفتوح ، فسقطوا
فوق المرتبة يمزقونها ويستولون على ما يجدونه فيها . . فتحوا خزانة برهوم
الاكتع الشحاذ . . وهو راقد على الأرض يصرخ ويشوح بعكازه . . ولم
يتوقف منصور بل انضم إلى المهاجمين وأخذ يجمع هو الآخر ما تصل إليه
يداه ويعبىء به حجر جلبابه . . ثم جرى خارجا من العشة إلى عشة أم
فردوس وألقى بما جمعه على أرضها . . ثم عاد يجرى عائدا إلى أبيه . .
ووجد المشردين وقد تركوا العشة . . وأباه ملقى صامتا على الأرض . .
والمرتبتين اللتين كان أبوه ينام عليهما ممزقتين حتى آخرهما وليس فيهما
شئ من أموال الكنز . . لم يجد شيئا سوى بضعة قروش منشورة في أنحاء
العشة . . وأنحنى على أبيه يتحسسها . . لقد مات . .

مات أبوه من الصدمة دون أن يعتدى عليه أحد . .

وعرف كل أهل الحى الحكاية واستمروا يتندرون بها . بعضهم
حزين ، وبعضهم ساخر ، ولم يفكر منصور ولا أحد من أهل الحى لإبلاغ
الربليس ليبحث لهم عن الذين أخذوا أموال كنز الشحاذ ويستردها منهم . .
بل لم يحاول أحد الإبلاغ عن موت برهوم الاكتع . . لا أحد يبلغ عنه من
أبناء هذا الحى سواء من الأحياء أو الأموات . . ووقانا الله شر الحكومة . .

ودفن برهوم الاكتع بعد أن لف في قطعة قماش مهلهل وبعد أن قرأ
عليه الشيخ عاشور بعض الآيات واختاروا لدفنه حفرة ليست مقبرة ولا حتى
مقبرة صدقة . . ولم يبك عليه أحد ، ولا ابنه منصور الذى ذهب إلى أم
فردوس وأخذ يعد ما خرج به من كنز أبيه . . وهى جالسة أمامه تبسم
كأنها فرحة به وبما عاد إليه . . ولكنه مبلغ صغير لا يتجاوز عشرة جنيهات
كلها من القروش والملايم . . جمعها وأعطاه أم فردوس لتحتفظ بها . .

وعاد إلى العشة وقد أصبحت له وحده وهو يفكر فيما سيكون عليه مصيره . . مهما كان حال أبيه فقد كان يعتمد على وجوده معه . . والآن هو وحده . . فماذا يفعل . . إنه لا يريد أن يكون شحاذا كأبيه رغم أنه على علم بكل أسرار المهنة . . إنه يفضل أن يعتمد على مد يده إلى ما يستطيع أن يمدّها إليه . . أى أن يحترف ويتفرغ للسرقة والنشل . . وهو إلى الآن لم يكن لصا محترفا ولا متفرغا . . كان يمد يده أشباعا لهوائته وبقدر ما يحتاج إليه من مطالب بسيطة رخيصة . . ولكنه يجب أن يغير حياته . . وفعلا . . بدأ يتوسع في مد يده . . واستطاع بسرعة ولقرط ذكائه أن يجمع الكثير . . بل أنه تخصص في سرقة ما في داخل السيارات ، وأصبح قادرا على فتح باب أى سيارة . . وعرف كثيرون من الذين يشتركون في المهنة . . وتعلم منهم الكثير . . وكان بعضهم يكونون من بين انفسهم شللا أو عصابات تقوم بعمليات جماعية . . وأحيانا يصلون إلى احتكار حى من الأحياء محرما على أى عصابة أخرى أن تعمل فيه . . ولكن منصور كان يفضل دائما أن يعمل وحده . . وكان من الذكاء بحيث يكسبهم جميعا حتى يتقى نعمتهم عليه وتعريض نفسه لمعارك معهم . .

وهو لا يزال يقيم في نفس العشة . . ويعيش كأن أم فردوس هى أمه وكان الشيخ عاشور هو أبوه . . ويفيض عليهما مما تصل إليه يداه . . وفي نفس الوقت لا يزال مصمما على الحصول على الشهادة الابتدائية . . وعندما وجد نفسه قد أصبح قادرا على دخول الامتحان فوجيء بأن ليس معه أى ورقة رسمية تحدد وجوده ، ويستطيع أن يقدم نفسه بها إلى الامتحان . . إلى الحكومة . . ليس له حتى شهادة الميلاد . . وقد قال له الشيخ عاشور أن لا أحد يبلغ الحكومة عن ابنه الذى يلده حتى لا تستولى الحكومة على هذا الابن بعد أن يكبر وتجنده ليكون جنديا في خدمتها . . ولكنه لن يجند لأنه ابن وحيد . . واخذ يسعى حتى تقدم إلى مكاتب الحكومة كأنه ساقط قيد وأن الشيخ عاشور ولى أمره ويريد تسجيله . .

وتم كل شيء ودخل الامتحان . .

وتنج . . أصبح يحمل الشهادة الابتدائية . . ولكن لا يكفى . . يجب أن يحصل على الثانوية أيضا ويدخل الجامعة . . لماذا لا . . أنه كبقية الاولاد حتى لو كان ابن شحاذ . . بل أنه أصبح بعد الابتدائية متقفا حتى وإن لم يكن من أبناء الطبقة المثقفة . . ولكنه يجب أن يغير مظهر الحياة التى يعيشها . . وكان قد غير الكثير من مظهره فعلا . . إنه يرتدى الآن البنطلون والقميص ولم يعد يظهر بالجلابية . . وقد أصبح يفضل البنطلونات الجينز . . بل أنه يخرج من العمليات التى يمد فيها يده بأرباح تكفى لأن يشتري بدلة كاملة ومعطفا . . وقد قرر أخيرا أن يترك العشة التى يقيم فيها وينتقل إلى بيت له جدران . . وقد استطاع أن يجد غرفتين في أحد أحواش المدافن الواسعة القديمة يؤجرهما التربي المسئول عن هذا المدفن بعد أن تشتت أصحابه ، ولم يعد منهم من يحاسبه ولا من يتردد على المدفن لزيارة المقابر . . وقرر أن يأخذ معه أم فردوس والشيخ عاشور ليقاما معه . . انهما أمه وأبوه . .

وقالت له أم فردوس وهى فرحة :

- ولكن كيف تعيش معك ابنتى فردوس . . ماذا يقول الناس . . إلا إذا عقدت عليها وأصبحت زوجتك . .

وقال ضاحكا :

- لا تتعجلي يا أمى . . انى لم اصل بعد إلى الخامسة عشرة من عمري . . فكيف أتزوج . .

وقالت أم فردوس جادة :

- الرجل يتزوج عندما يستطيع أن يكسب . . وانت تكسب . . ودوسة ابنتى في الحادية عشرة من عمرها ولكنها مادامت قد استكملت بلوغها فيجب أن تتزوج . .

وقال منصور مستمرا في ضحكته :

- على بركة الله ..

وتزوج منصور من دوسة دون أن يطرا على باله أن يسأل نفسه إذا ما كان الرجال الذين تعودوا أن ينزلوا إلى الحفرة ليضاجعوا امها قد ضاجعوها هي الاخرى ام لا .. إن كل ما في حياته كان طبيعيا لا يثير اى تساؤل ..

وانتقلوا ليعيشوا بين الجدران في حوش المدفن .. وكانت حياة اوسع وارقي من حياة العيش .. ولكن ما لبثت ام فردوس أن ضاقت قهفي لا تستطيع أن تعيش بين جدران .. ولا تستطيع ان تتحمل الحرمان مما تعودت أن تعيشه .. وصممت أن تعود إلى حياة الحفرة في الصحراء .. وصرخ منصور :

- كيف تخرج زوجتى دوسة لتزورك في عشتك وقد تعودت أن تعيش في بيت ..

وقالت ام فردوس تطمئننه :

- لن تزورنى دوسة .. انا التى ازورها .. لا أريد أن أرها في الحفرة .. والشيخ عاشور ايضا اصبح يضيق بحياته .. إنه اصبح يطوف بالمقابر فلا يدعوه احد ليقرا .. الناس اصبحت تعتبره كأنه اصبح غنيا وجارا لهم .. والله لا يريد أن يقرأ على المقابر قراء اغنياء يجب ان يكونوا من الفقراء حتى يكونوا اقرب الى الله ..

وصاح منصور في وجهه :

- إنك لم تعد في حاجة إلى التعب أمام المقابر .. وانا كفيلى بذلك ..

وقال الشيخ عاشور :

- ليس المهم ان أتكسب .. المهم ان أقرأ تقربا لله ..

وتركه الشيخ عاشور ايضا وعاد إلى العشة التى كان يعيش فيها .. إن الحياة هى ما تتعود عليه .. وقد تعود الشيخ عاشور على الحياة في عشة ملقاة بين الرمال .. ربما لو كان أبوه حيا لعجز ايضا عن نقله من العشة أو حرمانه من الشحاذة كما تعود أن يعيش حياته ..

وعاش وحده هو وزوجته دوسة في البيت الصغير داخل المدفن .. إنه لا يحس بدوسة كشخص آخر فقد عاشت معه كل حياته منذ ولد وولدت بعده .. كأنها ولدت لتكمله .. انهما شخص واحد .. وهو يزداد في عمليات مد اليد .. ودائما يكسب .. ودائما في امان .. ولا يزال مصرا على الحصول على شهادة الثانوية .. ويقضى كل فراغه في مذاكرة الكتب التى اشترى بعضها واستطاع ان يحصل على البعض الآخر بمد يده الذكية .. وهو يحلم بأن يصل يوما إلى الجامعة .. ويتخرج .. ويستطيع ان يصل إلى كل ما يريد .. ربما استطاع أن يكون وزيرا .. ولكى يكون وزيرا يجب ان يبدأ منذ اليوم في أن يعيش السياسة .. وهو منذ قرر ان يحصل على شهادة الثانوية دون أن يلتحق بمدرسة وهو يتردد على مدرس خاص يعلمه .. إنه مدرس غال يأخذ منه جنيهاً في الدرس الواحد أتعابا له .. وقد قال له المدرس إنه عضو في الحزب السياسى ويحدثه كثيرا في السياسة .. لماذا لا ينضم إلى هذا الحزب حتى يكبر فيه ويصبح معروفا به فيختارونه ليكون وزيرا ..

من يدري ..



سأأم وهو صاأ

كانت الساعة قد وصلت إلى ما بعد العاشرة مساء عندما جلس الأسطى عطية على مقعد قيادة السيارة اللورى الضخمة التى تجر وراءها شاحنة كبيرة . وأدار الموتور وهو يقرأ الفاتحة بينه وبين نفسه وتحرك باللورى فى طريقه عائداً إلى القاهرة .

كان قد ترك القاهرة فى الساعة السابعة من صباح نفس اليوم وهو يقود اللورى ويجر وراءه الشاحنة محملين بأجولة ضخمة من منتجات الشركة ليسلمها فى ميناء الاسكندرية . والمرفهون من قادة السيارات الصغيرة الخاصة أو الاجره يقطعون الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية فى ساعتين ونصف . وقد يتحدون الزمن ويقطعون المسافة فى ساعتين . واتوبيسات الركاب قد تقطع نفس المسافة فى ثلاث ساعات ونصف . أو أربع . . اما هو فيقطع هذه المسافة وهو يقود هذا اللورى الضخم ويجر وراءه هذه الشاحنة الثقيلة فى ست ساعات وأحياناً فى سبع . . ومعروف عنه كسائق أنه وافر الهدوء وقادر على الصبر الطويل ولانتنابه شهوة الاسراع بالسيارة التى يقودها أو تخطى سيارة تسبقه . . وكل ما يهيم هو أن يصل بسلامة الله دون أن يهيم حساب الساعات التى مرت به حتى وصل . . ومادام قد وصل ، فلا يهيم إن كانت قد زادت ساعة أو نقصت ساعة عن الموعد المقرر رسمياً لوصوله . . وقائد السيارة يجب ألا ينظر فى الساعة الزمنية الموضوعه امامه وهو يقود . . بل يجب أن يركز كل عينيه على ما امامه وما يحيط به حتى يتقن الأحداث ويوفر السلامة . . خصوصاً إذا كان يقود سيارة فى ضخامة وثقل عمارة ، أو كانها - وحدها -

مصنع كامل يتحرك كاللورى والشاحنة اللتين يقودهما الأسطى عطية . . فإن خسارة الساعات الزمنية لاتقاس بجانب خسارة الروح ، أو خسارة كيان السيارة فى حادث تصادم ، أو فى حادث مصادفة عثرة قد تقلب السيارة وتقتضى عليها . .

وربما تكونت هذه الشخصية الهادئة الصبورة للأسطى عطية نتيجة أنه لا يحس وهو يقود السيارة بأنه يؤدى عملاً مفروضاً عليه حتى يكسب رزقه . . ومضطر اليه مهما عرضة للإرهاق والمتاعب والمشاكل . . انما يحس وهو يقود السيارة كأنه يعيش حياته الطبيعية . . ويحس وهو جالس أمام عجلة القيادة نفس احساسه وهو جالس أمام زوجته وأولاده . . هذه هى الحياة . . وقد بدأ حياته بالسعى إلى عجلة القيادة قبل أن يسعى إلى الزواج وأنجاب الأولاد . . بل إنه يعتبر أن الحياة العائلية التى أقامها ليست سوى استكمال لحياته مع « الدريكسيون » . . أى مع عجلة القيادة . . وقد بدأ حياته صبيّاً يعمل فى جاراجات الشركة . . ومنذ رأى عجلة القيادة من بعيد ، وهو يحس انها حياته . . يريد أن يعيش معها وبها . . وقد استطاع أن يسعى إلى أن أصبح قائد سيارة من سيارات النقل اللورى التى يعيش بينها . . وعاش كل أيامه وعجلة قيادة اللورى فى أحضانه . . ووصل ارتباطه بالسيارة التى يقودها إلى حد أنه كان يثير ضجة إذا حاولت الشركة أن تعهد إلى سائق آخر بقيادتها . . كأنها زوجته وليس من حق رجل آخر أن يتولاها . . وقد راعت الشركة فعلاً أن تكون هناك سيارة مخصصة لقيادة الأسطى عطية مراعاة لرضائه لما عرف عنه من مكانة بين قادة السيارات . . وصحيح أن هذه السيارة قد تغيرت نتيجة التطور فى اختراعات معدات سيارات النقل ، ولكن يبقى إحساسه - دائماً - واحداً بكل سيارة يتولى قيادتها . . احساسه بأنها حياته . . كأنها زوجته . . رغم أن زوجته لا تدخلها أى تطور . .

إلى هذا الحد كان الأسطى عطية مرتبطاً بالسيارة اللورى التى يتولى قيادتها . .

وفي هذا اليوم الذى كلف فيه الاسطى عطية بقيادة اللورى من القاهرة إلى الاسكندرية . . أبلغته الشركة بأن اللورى يجب أن يعود إلى القاهرة في نفس اليوم محملاً بالآلات مستوردة . . وأنها ترى أن تكلف سائناً آخر ينتظره في الاسكندرية ويعود به . . وكانت الشركة تقصد أن الاسطى عطية سيكون متعباً بعد الوصول إلى الاسكندرية . . وهى تريد أن تريه وتطمئن أكثر إلى عملية نقل بضائعها . . ولكن الاسطى عطية كثر عن انياب الثورة والغضب . . كيف تعهد الشركة بسيارته إلى سائق آخر . . ثم كيف تفترض انه لن يستطيع قيادة هذه السيارة الضخمة ذهاباً وإياباً بين القاهرة والاسكندرية . . لقد سبق أن قاد السيارة في رحلات طويلة استغرقت أكثر من عشرين ساعة دون توقف . . فكيف تنسى . . ثم انه لو تولى القيادة ذهاباً وإياباً فإن المكافأة التى يحصل عليها بالإضافة الى مرتبه قد تصل إلى مائة جنيه . . وهو لا يمكن أن يضحي بمائة جنيه حتى يوفر تعب ليلة . .

واضطر موظفو الشركة أن يستجيبوا للاسطى عطية ويتركوه يعود بالسيارة إلى القاهرة . . انهم لا يتجاهلون قدراته وقوة احتماله كسائق . . ولا ينسوا أفضاله . .

ووصل الاسطى عطية بالسيارة إلى ميناء الإسكندرية في الساعة الثالثة بعد الظهر . . أى تولى قيادتها لمدة ثمانى ساعات لم يتوقف خلالها إلا نصف ساعة قضاها في كشك مدبولى المقام على رمال الصحراء عند منتصف الطريق . . وتناول كوباً من الشاي الأسود وشد نفساً من الجوزة دون أن يتبادل حديثاً مع سائقين من اصدقائه وجدهما هناك مكتفياً بإلقاء التحية ثم التفرغ للشاي والجوزة . . انه وهو يؤدى مهمته لا يعرض نفسه لما يشغله عن التركيز عليها حتى لو كان مجرد حديث مع اصدقاء . .

وبعد أن وصل إلى الميناء ترك عجلة القيادة ونزل من السيارة ليقف مع العمال وهم يفرغونها من حمولتها . . وهو ليس مسئولاً عن تفريغ اللورى . . ولكنه يصمم على أن يثبت وجوده في كل ما يتصل بالسيارة . .

وبعد أن مرت ساعات وانتهى انزال الحمولة . . قاد السيارة إلى مكان آخر حيث بدأ تحميلها بالآلات المستوردة . . ثم ترك عجلة القيادة ووقف ايضاً مع العمال والمشرقيين عليهم يتدخل بنفسه في كل حركة وفي كل تصرف . .

وبعد ساعات بدأ يحس بالانهاك . . واستند على باب السيارة وهو يقول لنفسه من خلال ابتسامة تتهاكك على شفثيه :

- من حقا أن تحس بالتعب يا عطية . . شد حيك . .

لقد خرج من بيته في القاهرة في الساعة الرابعة صباحاً . . والساعة الآن في الاسكندرية تعدت الثامنة مساء . . أى مضى عليه أكثر من ست عشرة ساعة وهو يعمل ويتحرك . . ومن الطبيعى بعد ذلك أن يحس بالتعب يسرى في جميع عضلات جسمه . . والانهاك يضعف أنفاسه . . كأنه في معركة ليس من حق المقاتل فيها أن يستريح أو يلتقط أنفاسه . . وإن كان لا يدري ما هى المعركة التى يخوضها ، ولماذا ليس من حقه أن يستريح . . ولكنها طبيعته التى ترسم شخصيته وهو يعمل . .

وفتح باب السيارة اللورى في سخط والقي نفسه ممداً على مقعد القيادة وقد قرر أن ينام ولو ساعة واحدة . . وقد تعود في مثل هذه الحالات أن ينام داخل السيارة . . ولكنه في الواقع لا ينام أبداً . . إنه يحس انه نائم يقظان . . أو يقظان نائم . . انه لا ينام نوماً كاملاً مشبعاً إلا على فراشه في بيته . . وكل ما يحس به وهو نائم داخل السيارة هو نوع من الاسترخاء المريح . .

واسترخى . . نائم يقظان ، أو يقظان نائم . .

وفجأة قفز من رقدته منطلقاً إلى خارج السيارة . . كأنه عرف وهو نائم إلى كم وصلت الساعة . . انها التاسعة . . وبدأ يطوف حول السيارة يراجع ماتم في عملية الشحن . . لقد قاربت على النهاية ولم يبق إلا القليل

حتى يبدأ القيادة في المشوار الطويل . . وتحرك كأنه يستكمل معداته . .
فحمل وعاء الماء أى « الترمس » الكبير وذهب به إلى المقهى المجاور وملاه
بالشاي الأسود الداكن . . أنه أقوى ما يصونك من النوم ويحتفظ لك
بيقظتك . . ثم أخرج علبة السجائر التى يحتفظ بها في جيبه . . وأطمئن . .
أنها لاتزال تحمل خمس سجائر . . سجائر خاصة محشورة بمسحوق
الحشيش . . وتكفى للمشوار الطويل . .

وكانت الساعة قد تعدت العاشرة عندما جلس على مقعده واحتضن
عجلة القيادة . . وتلى الفاتحة ثم تحرك باللورى الضخم ويجر وراءه الناقله
الثقيلة . . وظل وهو لا يزال داخل مدينة الاسكندرية يردد الآيات
القرآنية . . وقد حفظ كثيرا منها خلال عمره . . وكان يختار منها الآيات
التي تحمل دعوة الله إلى أن يصونه ويرحمه ويهديه . . وكانت من الآيات
التي تعود أن يبدأ بها . . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . لها ما كسبت
وعليها ما اكتسبت . . ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا . . ربنا
ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . . ثم يعقبها بترديد
آيات كثيرة من الاستعانة برحمة الله والاتجاء إليه والاعتماد عليه . .

وكان قد خرج بالعمارة الضخمة التى يقودها من مدينة
الاسكندرية . . وبدأ الطريق الطويل نحو القاهرة . . ومد يده ولتقط عليه
السجائر وفتحها وعلق سيجارة في فمه وأشعلها . . لقد فعل كل ذلك بيد
واحدة وهو قابض على عجلة القيادة بيده الأخرى . . لقد تعود أن يقوم بكل
شئونه دون أن يتوقف بالسيارة . . وشد أنفاس الحشيش بكل ما في أنفاسه
من طاقة . . كأنه يلتقط أنفاسا من الفيتامينات التى تزوده بكل القوة التى
يحتاج إليها . . أن الناس الجهلة لا يعرفون مدى هذه القوة التى يمكن أن
يهدم بها تدخين الحشيش . . إنها قوة تفرض على العقل البشرى التركيز
على موضوع واحد فقط طالما هو تحت سيطرة الحشيش . . فإذا بدأ
الحشاش يدخن وهو يفكر مثلا في موضوع مشاكله مع زوجته وأولاده . .
يظل كل عقله وكل احساسه وكل خواطره معلقة بهذا الموضوع طوال الفترة

التي يقضيها مسطولا . . كأنه أصبح استاذًا متفرغا لدراسة تخصص
فيها . . وهو الآن في حاجة إلى أن يركز كل عقله واحساسه على موضوع
واحد . . وهو موضوع القيادة . . لا يمكن أن يشتت عقله إلى موضوع
آخر . . حتى أن كل خواطره محصورة في القيادة . . أنه لا يتحدث مع
نفسه ولكنه يتحدث مع عجلة القيادة . . ويحس بها كأنها هى الأخرى كأن
حى يشترك معه في الحياة . . ولأنك أن الحشيش يساعده على استكمال
قوة هذا التركيز . .

وانتهى من تدخين السجارة ثم مد يده وفتح « الترمس » وصب
لنفسه كوبا من الشاي الأسود . . كل ذلك بيد واحدة تترك اليد الأخرى
متفرغة للقيادة . . إن الشاي الأسود كالطعام الدسم . . يستنزف كل مافي
المادة المزروعة من اسرار إلهية ليصحبها في بطن الشارب . . والسر الذى
وضعه الله في أوراق الشاي هو قدرتها على تنبيه أعصاب الإنسان والاحتفاظ
بها صاحبة نشيطة مستكملة كل وعيها . . وهو في حاجة إلى هذه القوة . .
قوة احتمال اعصابه وهو يقود هذه العمارة العالية التى تسير في شكل
سيارة لورى . . خصوصا وهو يقودها في الليل المظلم . . وهناك من الناس
الجهلة من يعتقد أن القيادة في الليل أسهل وأرحم وأكثر أمانا من القيادة في
النهار . . لأن الطريق يكون في الليل أخف في زحامه وفي المعوقات التى
تعرضه . . وهناك من السائقين الشبان من يطلق السيارة وهو يقودها في
الليل إلى منتهى سرعتها باعتبار أن الطريق خال . . أمان . . وهم مغفلون
أغبياء . . فالقيادة بالليل أكثر تعرضا للمفاجآت من القيادة بالنهار . . لأن
مدى الرؤية يكون أقصر خصوصا في الطرق التى لا تكون مضاة . . ويجب
أن تكون السرعة في الليل أقل منها في النهار . . وتركيز الانتباه أقوى . . إلى
أن يخرج الله بالسيارة وقائدها من الظلمات إلى النور . .

وكان قد قطع أكثر من ربع المسافة من الطريق الطويل عندما بدأ
يشعر بجفنيه يزدادان ثقلا فوق عيناه . . إنه يحس بأنه على وشك أن
يغفو . . وابتسم في داخل نفسه مطمئنا . . لقد سبق أن سقط جفنيه فوق

عينيه مرات وغفا اثناء القيادة . . إن الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان ويرعاه مادام من الطاهرين المؤمنين . . والاسطى عطية يعتبر نفسه طاهرا مؤمنا ، ويعيش كل وجوده في رعاية الله . . ولاشك أن الله يعلم مدى ما يبذل من جهد في عمله التنظيف الطاهر . . ويعلم أيضا مدى قوة احتمال تكوين هذا الإنسان لهذا الجهد . . لذلك فاذا زاد جهده عن قوة احتماله زوده الله بما يرعاه حتى ينتشله من الفناء . . أى أنه إذا أغفى وهو يقود السيارة رعاه الله من أن يقع في حادث أو يضيع في نكبة . . كأن الله هو ذاته يتولى قيادة السيارة ويتركه مغمض العينين حتى يريهما . . بل إن الاسطى عطية يعتبر أن الله سبحانه وتعالى وضع في عقل الانسان اجهزة الكترونية تتولى عنه وظائف الأعضاء التي خلقه بها إذا عجزت عن أداء مهمتها . . أى تقوم هذه الأجهزة بقيادة السيارة إذا نام قائدها . .

وقد منَّ الله على الإنسان بالوصول إلى بعض أسرار هذه الأجهزة الالكترونية . . واستطاع الإنسان بهذه الأسرار أن يخترع آلات يضعها فوق الأرض ويستطيع بها أن يطلق طائرة تطير في السماء ويحركها كما يشاء دون أن يجلس فيها قائد يصعد معها إلى السماء ويتولى قيادتها . . إن الطائرات التي تطير بلا قائد كالصواريخ التي لا يتولى الانسان قيادتها المباشرة وتقودها أجهزة الكترونية أصبحت منتشرة في العالم . . وإن كانت للأسف لا تزال مخصصة لتسليطها كأسلحة حروب . .

وأكثر من ذلك . . ماهو التلفزيون ؟ . . إنه جهاز الكترونى يلتقط خطوط الصور الهائلة في الفضاء الواسع ثم يجسمها وينقلها إلى شاشة تراها بعينيك . . أى أن واقع ما تراه على شاشة التلفزيون لا تراه مباشرة بعينيك بل تراه منقولاً اليك بعين أخرى . . عين الكترونية . .

والإنسان لا يمكن أن يصل إلى علم الا من داخل علم الله . . والاكتشاف والاختراع ماهو الا بعض ما يسمح به للانسان بالوصول اليه من داخل الوجود الذى خلقه وأقامه سبحانه وتعالى . . فالإنسان لم يصل

إلى الأجهزة الالكترونية من العدم بل وصل اليها من خلال قدرة الله . . وربما كان الله قد وضع في كل شيء جهازا الكترونيا . . وقد ينتم الانسان امام التلفزيون دون أن يتتبعه بعينه بل يكون قد اغمض عينيه عنه ، ولكنه يقوم من النوم ويفاجأ بأنه يروى القصة التي كان يعرضها التلفزيون كأن في داخل رأسه جهازا الكترونيا كان يلتقط ما يعرض امامه دون أن يراه بعينه . . وكذلك قد يغفو سائق السيارة وهو يقودها . . فيترك الجهاز الالكترونى داخل عقله يتسلط على الأعصاب المؤدية إلى يديه اللتين تمسكان بعجلة القيادة ويحركهما بحيث تستمر السيارة في طريقها وفي امان . .

وسقط جفنا الاسطى عطية فوق عينيه فعلا وهو ممسك بعجلة القيادة . . وأغفى . . ولكنه لم ينم نوما كاملا . . انه نائم يقظ . . أو يقظ نائم . . ويحس بكل شيء دون أن يرى أى شيء . . كأنه مستسلم للمركز الالكترونى الذى يتحرك في وعيه الداخلى . .

وفجأة . . أحس الاسطى عطية - وجفناه لا يزالان منسدلين فوق عينيه - يقدمه ترتفع عن مداس البنزين ثم تسقط بعنف وبكل قوتها فوق مداس الفرملة . . ووقفت السيارة اللورى الضخمة وهى ترتج . .

وكان الاسطى عطية قد رفع جفنيه عن عينيه ووجد السيارة قد حادت عن جانب الطريق وأصبحت في منتصفه في مواجهة سيارة لورى أخرى أتية من الناحية المواجهة من الطريق . . أى في طريقها إلى الاسكندرية . . وكانت السيارتان على وشك تصادم احدهما بالآخرى . . لولا أن الفرامل حالت دون الصدمة وأوقفتها ملتصقتان تلامس واجهة احدهما الأخرى . . لقد كان السائق الآخر أيضا قد تمكن من ضغط فرامله قبل أن يقع التصادم . .

ونزل الاسطى عطية من السيارة وهو يحمد الله وقال ضاحكا للسائق الآخر :

- هل اغمضت عينيك أنت الآخر ؟

وقال السائق الآخر ضاحكا هو الآخر :

- عيناي لاتطيع أوامري ..

وقال الاسطى عطية وهو يمد ذراعه داخل السيارة ويلتقط وعاء الشاي :

- الحمد لله .. خذ منى شغطة شاي حتى تقدر على فتح عينيك ..

وقال الآخر وهو يأخذ من عطية كوب الشاي :

- ألف حمد وشكر لله .. خذ هذه السيجارة حتى تربطك بالدركسيون .. وتصبرك على القيادة ..

وتبادلا كوب الشاي الأسود وسيجارة الحشيش .. وكأن كل منهما يحدث نفسه .. ثم صعد كلاهما إلى مقعد قيادته وتحركا في هدوء كأن شيئا لم يحدث ..

وفي سلامة الله ..



نوع آخر من الجنون ..

كانت أمها جميلة .. منتهى الجمال .. وليس جمالها جمال زاقق .. ولكنه جمال هادئ .. طيب .. كأنه نسمة ربيع يتمنى كل إنسان أن تهف عليه ويعيش فيها ..

ولكن أمها كانت أيضا مجنونة .. انهم كلهم وكل من حولهم يعرف انها مجنونة .. ولكنه أيضا جنون هادئ .. كأنه يختبئ من داخلها ولا يظهر عليها .. واقوى مظاهر هذا الجنون انها كانت دائما منعزلة بنفسها .. صامته .. قد تمر عليها أياما دون أن تنطق بكلمة .. وتعيش كأنها لاتعرف أحداً محولها ولا شيئاً ممايحيط أو يلم بها .. كأنها تعيش في عالم آخر ترسمه لنفسها ولايعيش معها فيه أحد .. حتى أولادها منذ ولدتهم كانت تبدو كأنها لا تعرف انها امهم .. ما هي الأم .. حتى أنها كانت لا ترضعهم إلا إذا حمل أبوهم الواحد منهم ووضع على صدرها ، وأخرج صدرها ووضع حلمته بين شفتي الوليد .. وهى مستسلمة في سعادة كأنها في كل مرة ترضع فيها تكتشف شيئا جديدا يسعددها .. ولاتلبث أن تنساها .. إلى أن يحمل لها الأب الطفل مرة أخرى .. وخلال هذا الهدوء كانت تنتابها فترات شاذة عجيبة .. لقد دخلت المطبخ يوما وكانت أم رتيبة المشرفة على خدمة البيت غائبة عنه بعد أن انتهت من إعداد اطعمة وجبة الغداء .. فحملت الأم كل الأواني التى تحمل هذا الطعام وسكبتها في صفيحة الزبالة ثم وقفت في هدوء أمام الحوض تغسل الأواني كأنها ست بيت ممتازة .. وفي يوم جمعت كل ثياب أبنائها وانزوت بها في غرفتها وأخذت تقلب فيها .. وربما خيل اليها أنها كلها اثواب في حاجة إلى إصلاح وتعديل .. ولكنها بدلا من أن تمسك بخيط وابرة لإصلاحها

أمسكت بالمقص وأخذت تقص فيها ثوبا بعد ثوب . . ثم قامت وأعادتها
قطعا ممزقة إلى مكانها . .

وكان أبوها هو أقرب افراد العائلة تحملا لجنون زوجته . . ولكنه كان
يحبها إلى حد أنكار هذا الجنون . . إنها شاذة ولكنها ليست مجنونة . . وقد
بلغ من حبه لها وعدم سلواه لمعاشرتها إنه أنجب منها سبعة . . أربعة أولاد
وثلاث بنات . . وقد أطلق عليهم كلهم أسماء تبدأ بحرف الميم . .
مصطفى . . مرتضى . . محمد . . منصور . . ماجدة . . منيرة . .
ميرفت . . مجرد أن اسم أهمهم يبدأ بنفس الحرف . . مفيدة . . إلى هذا
الحد كان يحبها . . يجب هذه المجنونة . . ربما لأن جمالها يشبع متعته
وهي مستسلمة له بين ذراعيه . . دون أن يؤثر هذا الجنون على هذه
المتعة . . فهي بين ذراعيه مستسلمة له لا تحس بأنها تعطيه أو تأخذ
منه . . ولكنها تحس في كل مرة أنها تتفرج على شيء جديد يحدث لها . . وهو
ما يثير متعته أكثر ويغلب متاعبه التي يلحقها به جنونها . .

وكان كل افراد العائلة الكبار يلحون على الاب أن يعرض زوجته على
طبيب أمراض عقلية . . طبيب مجانين . . ولكنه كان يرفض دائما . . فهي
لا تحس بأنها مجنونة وعرضها على طبيب أو إلحاقها بمستشفى سيكشف
لها أنها مجنونة أو على الأقل متهمة بالجنون . . وهذا يجعلها تجن أكثر . .
وتتعمد أن تغالى في تصرفاتها الشاذة كأنها تعطى لنفسها حق المجانين . .
أى لا تتكفى بشذوذها الذى لا تتعمده بل تفتعل تصرفات أبعد شذوذا
مادامت قد أصبحت تعرف أنها مجنونة . . وهذه نظرية معروفة في العلاج
النفسى . . فيجب ألا يعالج المريض على يد طبيب مختص . . أو أن يتخفى
الطبيب المختص في شخصية أخرى وهو يعالجه حتى يخفى عنه ولا يواجهه
بأنه مريض . . ثم إن العائلة تعودت على احتمال هذا الجنون . . وهو نفسه
يتحمل أضعاف ما يتحملة أى فرد منهم . . فلا داعى لعرضها على
طبيب . . ومن يدرى لعل الله يشفيها من شذوذها . . ولا يدرى أحد بعد
كيف ستكون ؟ لعلهم يندمون على أيام الشذوذ . .

وكانت المفاجأة قاسية . . لقد خرجت الأم مفيدة من عزلتها داخل
غرفتها وهي تبتسم ابتسامة واسعة . . كأنها ترسل بها قبلة لكل ابن من
أبنائها . . ثم وقفت في الشرفة المطلة من الدور العاشر . . وشبت على قدمها
وابتسامتها لاتزال بين شفيتها وألفت بنفسها . . وماتت . .

ولعل كل ما كان يدور بعقل أمها ساعة ألقت بنفسها إلى الموت هو
محاولة الفرجة على العالم الآخر الذى سمعت عنه . .

ولاشك أن أباهما كان صادقا في حزنه على ضياع زوجته . . لقد كان
يحبها رغم كل ما فيها . . ولكن حزنه لم يؤثر في طبيعته كرجل إدارى
بالنسبة لبيته وعائلته . . وحسن الإدارة يفرض عليه أن يجد زوجة أخرى
تساعده في إدارة البيت والإشراف على أبناء السبعة . . ولم يمض سوى
أربعة شهور على انتحار زوجته الأولى حتى كان قد تزوج الثانية . . وكان
ذكيا في اختيارها فهي امرأة لا تتجرب . . وكانت زوجة سبق أن طلقت لعدم
انجابها . . وهذا يوفر عليه متاعب التوفيق بين أولاد الزوجة الأولى وأولاد
الزوجة الثانية . . ويوفر عليه مشاكل تعلق الأم بأبنائها . . ووضعهم فوق
أبناء ضررتها . . حتى لو كانت الضرة قد ماتت . . وفعلًا دخلت الزوجة
الجديدة بيتهم وهي تحب الأولاد والبنات وتفيض عليهم بمنتهى الحنان
كانها أخيرا وجدت لنفسها أبناء . . وخصوصا حبها لها . . لميرفت . . فهي
أصغر البنات . . وقد أخذتها بعد وفاة أمها وهي لاتزال في العام الأول من
عمرها . . وتولت هي أمدادها بكل مطالب الحياة . . وأصبحت تحس بها
أنها ابنتها فعلا . . بل كانت تميزها عن أختها فيما تضيفه عليها من رعاية
واهتمام . .

وسارت العائلة في حياة جديدة وخصوصا بعد أن تخلصت من جنون
الأم التي ماتت . . ولكنها أيضا حياة غريبة . . وكان الأب هو دائما القائد
الأعلى للعائلة . . يتحمل مسئولية كل دقيقة تمر بها . . فهو الذى يطعمها

ويشتري بنفسه لوازم الطعام .. ويشرف على تنظيف البيت واعداده .. ولا يتحرك أى فرد من أفرادها إلا بأمره .. وكان الأولاد السبعة كلهم صامتين حتى بينهم وبين بعض .. ولا شيء يجمعهم .. كل منهم له طبيعة وشخصية قائمة بذاتها .. وكل منهم يختار حياة خاصة لا علاقة لها بحياة الآخر .. حتى كان من المستحيل أن تجمعهم في تقاليد عائلية واحدة .. حتى في المظاهر العادية .. فمصطفى مثلا يواظب على تناول الطعام مع والده .. الإفطار والغداء والعشاء .. ومرضى يتناول الإفطار ولا يتناول الغداء منتظرا العشاء .. ومحمد يكتفى بالإفطار وحده ولا يأكل بعده مهما تحايلت عليه زوجة أبيه .. وماجدة تعتبر تناول الطعام كأنه تلطيخ لأمعائها ، ولا تأكل إلا وأبوها أو زوجته يحشر لها الطعام في قمها حشرا .. و .. و .. وكانت المشادات تقوم أحيانا داخل العائلة ولكنها كانت دائما مشادات مع الأب .. لا تشترك فيها الزوجة .. إنها زوجة مستسلمة كل الإستسلام لزوجها ولأولاده مهما كانت غريبة ما تستسلم له .. وكان الأب على قدر ما يشك من متاعبه العائلية يشيد ويتفاخر بابنته الصغرى .. ميرفت .. إنها الوحيدة التي رزقه الله بها لتعوضه عن كل ما يلقاه .. إنها جميلة كامها .. منتهى الجمال .. ولكنها أيضا عاقلة .. منتهى العقل .. لقد ورثت عن أمها الجمال .. وورثت عنه العقل والجدية .. انها الوحيدة بين أولاده التي يحبها .. منتهى الحب .. ويرتاح إليها .. منتهى الراحة .. وقد كانت ميرفت هي الوحيدة التي تجمع العائلة كلها .. وتنقل بينهم واحدا واحدا وتبادل حكاية .. أى حكاية ..

والأيام تمر .. وكانت اختها الكبيرة ماجدة قد بلغت الرابعة عشرة عندما بدأوا يلاحظون عليها تطورها .. لقد بدأت تنعزل عنهم جميعا .. ولا تتبادل معهم ولو كلمة .. وتقوم من النوم كل صباح دون أن تعد نفسها للذهاب إلى المدرسة .. لا لأنها ترفض ، ولكن كأنها لا تذكر أنها يجب أن تذهب إلى المدرسة .. إلى أن يأتي أبوها ويصرخ فيها ويشدها من فوق السرير ويكلف زوجته بأن تدخلها الحمام وتلبسها ثيابها ويدفعها إلى أن

تنضم إلى أختها ويذهب بهن إلى المدرسة .. إلى أن تطورت ماجدة أكثر وأصبحت تقضى كل وقتها وهي جالسة تحت السرير .. كأنها تختبئ منهم ولا تريد أن ترى واحدا منهم .. أو لعلها تتصور أنها تلعب معهم لعبة استغماية .. ولكنها بدأت بعد فترة تقوم من جانب أختها وهن نائمات على سرير واحد .. وتلقى نفسها وتنام تحت السرير ..

ومرت فترة طويلة والعائلة متحملة شذوذ ماجدة .. والوالدا يتهمها بأنها كسولة جاهلة لا تريد أن تكبر وتعيش كالبنيات الناضجات وتكره الذهاب إلى المدرسة كما يكرهها كثير من الصغار .. بل إنه قرر أن يحرمها من المدرسة حتى يريح نفسه من متاعبها .. وتركها في البيت لا تخرج منه لأنها هي نفسها لا تريد أن تخرج .. ويعتبر انها تلعب بإصرارها على الجلوس تحت السرير .. ولكن زوجته كانت تنظر إلى ماجدة كأنها تشاهد مأساة .. ولكنها لا تتكلم ولا تحاول أن تفسر حالتها .. كأن ليس من حقها أن تتدخل في هذه الحالة .. انما هو حق زوجها وحده .. أما ميرفت فقد كانت الوحيدة التي تبذل أكثر في مراعاة أختها ماجدة .. وتجلس معها طويلا تحدثها .. وماجدة تتحدث في بساطة كأنها فتاة عادية وتجنب على كل سؤال إجابة طبيعية حتى لو كانت غريبة .. وقد قالت انها تجلس تحت السرير لأنه المكان الذي تحس فيه بالهدوء ، وتبتعد فيه عن دوشة البيت والعائلة ..

إلى أن لاحظت ميرفت أن أختها بدأت تبكى كثيرا وهي منعزلة وحدها .. واستطاعت بلباقتها أن تصل إلى سر هذا البكاء .. ان أختها تحب ابن الجيران .. ولكن أين رأت ابن الجيران .. لعلها شاهدته مرة من النافذة .. هل مجرد المشاهدة من بعيد تكفى للحب .. ثم انه يكبرها كثيرا .. فماذا أحبت فيه ؟ أو لعلها لم تره أبدا حتى ولا من النافذة .. فهي لم تشاهد أختها أبدا تطل من النافذة .. وبالعكس أن من عادتها أن تبقى النافذة مغلقة حتى لو تشادت مع أختها .. لعلها تخيلت قصب حب تعيش فيها .. واختارت أن يكون بطلها هو ابن الجيران لأنه البطل العادى

في معظم قصص الحب .. ولكنها كانت تعيش خيالها كأنه واقع إلى حد أن تبكى دائما كأنها فتاة محرومة من حبيبها فعلا .. بل إنها بدأت تجلس وتكتب خطابات طويلة .. خطابات حب .. ولكنها لا تحاول أن تكتشف وسيلة لتصل خطاباتها إلى حبيبها .. ولكنها ما تكاد تنتهي من كتابة خطاب حتى تضعه في ظرف لا تكتب اسما عليه ثم تلقيه من النافذة .. إن كل ما تتصور أنه يجمع بينها وبين حبيبها هي النافذة .. ولعلها تتصور أنها لو مدت يدها من النافذة فستمسك بيد حبيبها .. ولكنها لم تحاول أبدا أن تمد يدها من النافذة .

إنها مجنونة .. لاشك إنها مجنونة .. وأعلن الأب جنونها وصاح :

- لقد ورثت الجنون عن أمها ..

ولم يكتف الأب بأن يتحمل جنون إبنته كما تحمل جنون أمها .. ربما لأنه لا يخرج بشيء من هذا التحمل .. ليس له مصلحة خاصة في تحملها .. إنه لا يأخذها في أحضانها كل مساء كما كان يأخذ أمها .. وبدا يطوف بها على أطباء الأمراض العقلية ، وإنتهى إلى وضعها في مستشفى المجانين بالعباسية ..

وميرفت تلاحقها وتطن في أذنيها كلمة أبيها عن اختها .. لقد ورثت الجنون عن أمها .. هل الجنون يورث .. إن كل العائلة تقول أنها أقرب الأبناء إلى أمها .. ورثت عنها كل جمالها وكل ملامحها .. فهل سترث عنها الجنون أيضا ؟ !

ولكن لماذا تخاف الجنون .. إن كل إخوتها ليس بينهم مجانين إلا اختها ماجدة .. واختها منيرة عاقلة هادئة .. وقد تزوجت وإن كانت تعيش مع زوجها بعيدا في أسبوط ولم يصلهم عنها أى أخبار عن أى علامة من علامات الجنون .. وإخوتها الصبيان قد كبروا وكل منهم يعيش حياة مستقرة لا يعكرها أى شذوذ .. وإن كانوا كلهم متباعدين عن بعضهم

لا يعلم أحدهم شيئا عن الآخر .. ولا يهمه أن يعلم شيئا عن تفاصيل حياة أخيه .. ولكن من أدرها .. أن جنون أمها كان يوصف بأنه جنون هادئ .. ربما كان كل إخوتها مصابين بهذا الجنون الهادئ .. وهل يجب أن تثبت لنفسها أنها لم ترث جنون أمها .. وليست مجنونة حتى هذا الجنون الهادئ ..

وقد كان مظهر جنون أمها هو إنعزالها الدائم .. كل ما فيها منعزل عن دنياها .. أحاسيسها .. وعقلها .. ووعيها .. منعزلة حتى عن أبنائها .. ويجب أن تطمئن ميرفت إلى أنها لا تنعزل بنفسها أبدا .. يجب أن تعيش مع كل ما حولها .. حتى تثبت لنفسها أنها ليست مجنونة .. وليست معرضة للجنون ..

وبدأت تعتمد المغالاة في فرض نفسها على كل من تعرفه .. إنها في البيت لا تكف عن ملاحقة أبيها وزوجته وأخوتها بالتدخل في تفاصيل حياة كل منهم .. وكلامها كله صباح ونظراتها كلها كأنها قفزات .. وفي المدرسة أيضا تعيش مع كل الطالبات .. وتضم نفسها إلى كل المجموعات .. وتشتبك في كل الرحلات .. وتقبل كل الدعوات .. وهي دائما تنجح في كل امتحان .. أنها تعتمد النجاح حتى تؤكد أنها ليست مجنونة .. وبعد أن التحقت بالجامعة اتسع انبساطها .. إنها تعيش كل ما في الجامعة .. حتى قصص الحب .. وهي نفسها لم تستطع أن تميز هذا الحب .. أو يطرأ عليها إحساس تفسره على إنه حب .. ولكنها كانت تكتشف أن إحدى زميلاتهن في حالة حب مع زميل .. وتتساءل لماذا لا يحبها هي هذا الزميل .. هل ينقصها شيء ليحبها .. أم أنه يعتبرها مجنونة .. والمجانين لا يصلحون للحب .. ويتسعى وراء هذا الزميل حتى تفرض عليه أن يحبها بدلا من زميلتها .. ووجدت نفسها تعيش في عشرات من قصص الحب .. لا تكاد ترتبط بقصة مع زميل حتى تنتقل إلى قصة مع زميل آخر .. ولكن كان في ميرفت إيمان أقوى منها وهي أنها لا تسمح لأى شاب تجمعها بها قصة حب بأكثر من أن يمسك يدها .. أنها لا تعطيه أكثر .. وهي تعلم

ما هو أكثر . . تعلم كل شيء عن القبلات والاحضان والتلاصقات . . ولكنها لا تستطيع . . وهو ليس ايمانها بمبادئ الحرس على اعزازها بشرفها . . ولكنها طبيعتها . . فهي لا تطيق أن تضع شفقتها بين شفتى رجل . . أو تتركه يلف ذراعيه حول خصرها . . لا تطيق . . بل أكثر من ذلك . . انها لا تفكر أبدا في الزواج حتى تسعى إلى تحقيقه . . ولا يطرأ على بالها . . أن حياتها كلها متجمعة في ذاتها ولا تحوجها لأن تدخل فيها أى ذات أخرى . .

وقد عرف كل الطلبة طبيعتها . . انها تريد مظاهر الحب ولا تعيش فيه . . ولا تعبر عنه الا بوضع اليد في اليد . . وتتقلاتها بينهم في هذه المظاهر جعلتهم يستهينون بها . . ولا يحسدون بعضهم بعضا عليها . . كل منهم يعلم مصير الآخر معها . . ويستهيئون . . ويضحكون . . ويعتبرونها مجنونة . . إنه نوع من الجنون . .

ولم تعد العائلة تعتبرها فتاة عادية . . واخوتها يتحملون الضجة التي تثيرها حولهم ساخرين . . وزوجة أبيها تتحمل صامته ويدفعها حبها لها إلى تكذيب نفسها . . إنها ليست شاذة . . كل بنت لها خصالها . . اما ابوها فقد بدأ يئأس . . لقد ورث الجنون عن أمها . . جنون له مظهر آخر . . ولكنه بالأمل . . انها ناجحة في دراستها . . ومن يدرى لعلها تنجح بعد مدة في تجريد شخصيتها من شذوذها . . ولكن ميرفت بعد أن تخرجت بدأت حياة غريبة . . إنها لا تريد أن تنتظر حتى تعينها الحكومة في احدى الوظائف . . إنها ليست مجنونة كامها حتى تعزل نفسها في وظيفة حكومية . . كبقية الناس التاجحين . . وتستطيع أن تقتحم ابواب النجاح . .

لماذا لا تكون مذيعة في التلفزيون . . حتى تظهر صورتها امام الناس وتحادثهم ؟ !

وبدأت تقتحم حياة العاملين في التلفزيون . . وهي تقف امامهم لا

كانها تشخذ منهم أو تستعطفهم أو حتى تحاول اقناعهم . . ولكنها تتكلم كأنها تتفضل عليهم بأن تكون معهم وتظهر بينهم . .

ثم فجأة اتجهت اتجاها آخر . . لماذا لا تكون نجمة من نجوم السينما . . لماذا لا تحل محل فاتن حمامة . . إنها اجمل منها . . ولا شك انها اقدر منها . . إنها الجبل الذي يحل محل فاتن . . وهي قوية تستطيع ان تحقق كل ما تريد . . وليست ضعيفة منعزلة كما كانت أمها أو أختها ماجدة . . واقتحمت حياة العاملين في السينما . . وهي ايضا لا تحس بأنها تسعى وترجو ولكنها تتفضل عليهم بالظهور بينهم . .

ثم خطر على بالها خاطر جديد . . إنها يجب أن تكون مشهورة . . يجب أن تعرفها البلد . . تعرف هذه الفتاة الجميلة العبقريّة القوية . . كيف تشتهر ؟ يجب أن تكتب كل الصحف عنها . . ستدلى بأحاديث صحفية تؤكد قوة الجيل الجديد . . وبدأت فعلا تتصل بكثير من الصحفيين . . كل من تقرا له أو تعرف باسمه تبحث عن رقم تليفونه وتتحدث معه موعدا . . ولا تريد منه شيئا إلا أن يكتب عنها وينشر صورتها . . وحديث معها . .

وقد تعرضت لكثير من المغامرات مع كل هذه الاتجاهات التي تخطر على بالها . . إن كل من تصل اليه يستقبلها كفتاة جميلة . . بسيطة . . مجنونة . . وإما أن يطمع في التمتع بجمالها . . أو يشفق عليها لاساطلتها . . أو يهرب من جنونها . . ولكنها لا تحس بما يستقبلها الناس به . . لا تحس إلا بثقتها في قوتها . . القوة التي سترت لها طبيعتها في الا تعطى لأى رجل إلا يدها . .

ولكن هذه المرحلة من حياتها كانت تفرض عليها أن تعيش الليل بعيدا عن بيتها . . الليل الذى يجمع العاملين في التلفزيون والسينما والصحافة . . ولم يحتمل أبوها أن تغيب عن البيت في الليل . . آخر موعد لها هو أن تعود في الساعة مساء على الأكثر . . وهي في دخيلة نفسها مرتبطة بأبيها . . لا تستطيع ان تتحرر منه بالابتعاد عنه . . فأصبحت

تتعمد أن تعود في الساعة السابعة . . وهو يغلق الباب بالمفتاح بعد أن تصل ويحفظه . . وسحب منها المفتاح الذي كان من حقها أن تحمله كبقية أخواتها . . وقد وجدت من حقها أن تتحایل حتى لا تطفئ شعلة مشاريعها الضخمة . . وكانت قد قاومت طويلا حتى لا تلجأ الى هذا التحایل ولكنها لم تستطع أن تستمر في المقاومة . . وتركت فراشها في منتصف الليل وأفراد العائلة كلهم نيام . . وفتحت الباب وخرجت . . إنها على موعد مع الكوكب السيمائي الذي وعدها بأن تكون بطلا فيلمه القادم . . وقد اغلقت الباب بعد أن وضعت بين ضلفتيه ورقة سميكة حتى يظل مفتوحا لها بعد أن تعود . . وقد عادت دون أن يحس أحد في العائلة بشيء . .

ولكنها في المرة التالية قامت من فراشها وارتدت ثيابها ثم فتحت الباب . . وقبل أن تخرج فوجئت بزوجة أبيها أمامها . . وحاولت أن تمنعها من الخروج . . إنها زوجة مطيعة لا تستطيع أن تخالف أوامر وتعاليم زوجها مهما بلغ حبها لها . . وقامت معركة بينهما وكل منها حريص على ألا يرتفع صوته حتى لا يصحو الأب . . أو أحد من الأخوة . .

ودفعت ميرفت زوجة أبيها في عنف . . فسقطت على الأرض وانشقت رأسها بإرطامها بالحائط . . وتركتها ميرفت كما هي ، وأسرت بالخروج بعد أن وضعت قطعة الورق السميكة بين ضلفتي الباب . . وكأن شيئا لم يحدث . .

وعادت ميرفت كعادتها . . وفوجئت بالبيت كله متيقظا ملتفتين حول زوجة أبيها يضمدون رأسها المشقوق . . وهي تنظر اليهم دهشة كأنها تسأل ماذا حدث . . وصرخ أبوها وهو ينهال عليها بكفيه ضربا :

- سجنونة . . ورثت الجنون عن أمك . .

ولم يترك المجنونة في جنانها . . ووضع ابنه في مستشفى العباسية للمجانين . . أو هو سجن المجانين

لقد أفرجت مستشفى المجانين عن ماجدة بعد عام واحد لأنه ثبت أنها مصابة بجنون هاديء يمكن أن تعيش به في بيت العائلة . . ولكن لم يصدر بعد قرار بالإفراج عن ميرفت . . إنها تحمل نوعا آخر من الجنون .



رأس غير رأسي..

منى .. ويكفينى أن زوجى شوقى ينتصر على منافسيه ويفوز .. وسأتحمل
أيضا إلى أن يفوز أخى مراد ..

وعاد مراد ..

والقى بنفسه منهكا على مقعد بين نساء العائلة ..

والتفغن حوله يتصايحن ويسألن .. وهو لا يكاد يسمع صياحهن
ولا أسئلتهن .. إلى أن هدأن قليلا من حوله وتباعدن عنه .. واقتربت منه
أخته الكبرى دولت وسألته فى صوت هامس جاد كأنها تبدأ معه العمل ؟

- ماذا فعلت اليوم ؟

ونظر مراد إلى أخته الكبرى وقدر أن من حقها أن تسأله وقال وهو
يقرقر أنفاسا متعبة :

- هلكت .. ذهبت فى الصباح إلى مكتب الحزب .. ثم ذهبت إلى مكتب
وزير الداخلية .. ثم طفت بمائة بيت .. ومائة مقهى وكافيتريا .. ثم زرت
مائة شخص .. ولا أدري بماذا خرجت من كل هذه المشاوير .. انى اتبع
التقاليد القديمة التى كان يتبعها المرشحون .. لابد أن هناك وسائل جديدة
لاكتساب الأصوات توفر مشاوير التفاق .. إنى منذ اليوم الأول وأنا أحس
بالندم على قبول ترشيحى ..

وصاحت فيه دولت كأنها تنهره :

- إياك أن تستسلم للتعب أو الندم .. وسيعوضك الفوز عن كل ذلك
وتفرح .. والبلد كلها ستفرح بك .. أنك لا تدري كم تعب زوجى وهو
مفرح وكم فرح بالفوز .. إنها معركة لا يفوز فيها إلا الأبطال .. وانت
بطل ..

وسكتت دولت برهة ثم استطردت :

كانت نساء العائلة مجتمعات تتوسطهن الأخت الكبرى دولت
وأصواتهن ترتفع كالضجيج وكلهن يتحدثن فى وقت واحد وفى موضوع
واحد .. كان كل منهن لايهمها إلا أن تتكلم ولا يهمها أبدا أن تسمع ..
وكن كلهن فى انتظار الأخ الأصغر مراد التى نشرت الصحف كلها صباح
اليوم خبر ترشيحه فى الانتخابات ..

وكانت دولت تبدو بينهن كأنها الرئيسة أو كأنها عالمة تعرف كل شيء
عن الانتخابات .. لا تكف عن الكلام .. وتصرخ فى وجه من تسمعها
ولا يعجبها كلامها .. أو تصرخ صرخة مبتسمة لواحدة أخرى تؤيدها
ولكنها تقضل أن تسكتها .. وكانت تقاطعهن جميعا قائلة بالصوت العالى :

- ليس بينكن من تعرف عن الانتخابات ما أعرفه .. إنها دنيا
واسعة .. كل حجر فيها تحته سر .. قد يكون تحت الحجر ثعبان سام ..
وقد يكون تحته زجاجة كحوليا معطرة .. واسألونى أنا ..

وكن يسألنها .. فهن يذكرن أنها عاشت الانتخابات عندما سبق أن
رشح زوجها نفسه فى الانتخابات منذ أكثر من خمس عشرة سنة .. وكان
معروفا أنها جاهدت معه وتعبت مع كل متاعبه حتى فاز وأصبح عضوا مهما
فى البرلمان .. وهى تقول كأنها تعيش ذكريات سعيدة :

- مازلت أذكر كل خطوة .. وكل هزة رمش .. وكل فنجان قهوة
شربته وساهم فى إصابتي بقرحة فى المعدة .. وكل طبق أكلته وسبب لى
المغص الكلى .. بل انى كنت أيامها لا أحس حتى بالموت لو اقترب

- هل بدأت الإتصال بالكمسارية ..

وقال مراد في دهشة :

- أى كمسارية ؟

وقالت دولت وهى تنظر إليه كأنها تتهمه بالغباء :

- كمسارية الترام والمترو والأوتوبيس الذين يسيطرون على كل أحياء

الدائرة ..

وقال مراد فى برود :

- إن معظمهم أو كلهم ليست أسماؤهم مسجلة فى قوائم ناخبى

الدائرة حتى احتاج اليهم بإعطائى أصواتهم ..

وصاحت دولت :

- أصواتهم ليست مهمة .. المهم أن كلاً منهم يمكن أن يكون منشورا

حيا ناطقا للمرشح .. إنه وهو يوزع تذاكر ركوب الترام أو المترو أو

الأوتوبيس يستطيع أن يهمس بإسمك فى أذن الراكب .. بل يستطيع أن

يكتب إسمك على التذكرة حتى ينقله الراكب إلى تذكرة الانتخاب .. بل إن

زوجى شوقى كان يطبع منشورات ويسلمها لهؤلاء الكمسارية حتى يوزعوها

على الركاب .. وتصور كم يبلغ عدد الركاب فى الدائرة وكلهم من الناخبين

الذين سنحصل على أصواتهم ..

وقال مراد وهو يبتسم ابتسامة باردة :

- فكرة .. سأحاول ..

وصاحت دولت :

- لا تكنفى بالمحاولة .. يجب أن تضع للكمسارية مشروعا

لنفذيا .. وتكون من بينهم هيئة تمثلهم على اتصال دائم بك وتنطق بإسمك

وتنفذ تعليماتك .. وقد تكلف هذه الهيئة كثيرا .. فمعظم الكمسارية غلابة

ول أشد الحاجة إلى الكثير .. فلا تبخل عليهم .. وكل شئ بثمنه ..

وهوذلك فى الانتخابات ثمنه غال ..

وقال مراد ضاحكا :

- حاضر يا أبله دولت ..

وقالت دولت بسرعة :

- وسأبدأ أنا بتكوين الهيئة الخاصة بى ..

وقاطعها دهشا :

- أى هيئة هذه التى تخصك ؟

وقالت مستطردة :

- هيئة ستات البيوت .. إننى أعيد نفس ما كنت أقوم به أيام كان

زوجى مرشحا .. لقد كونت هيئة من ستات البيوت ضمت كل الجارات

والصديقات وطبعا سيدات العائلة .. ولعلك لا تدرى قيمة ست البيت فى

التأثير على نتائج الإنتخابات .. إنها تملك أولا صوتها كناخبة وصوت

زوجها وأولادها وبناتها الكبار .. ثم أصوات جميع أفراد عائلتها .. ثم

تستطيع التأثير على صوت كل من يتعامل مع البيت .. صوت الخضرى

والبقال والجزار .. و .. و .. وإذا اجتمعت أغلبية ستات البيوت حول

تأييد مرشح واحد .. فكانهن أصبحن ثورة ديمقراطية لا يستطيع صوت

أن يفر من بين أيديهن ومن تحت إرادتهن .. لقد كان من بين عضوات

الهيئة التى كونتها ست بيت رفضت فى صبيحة الإنتخابات أن تقدم الإفطار

لزوجها وبقيّة أفراد العائلة إلا بعد أن وضعت أمامهم المصحف الشريف

واقسدا عليه أن يتوجهوا إلى مكاتب الانتخابات وينتخبوا زوجى شوقى . .
وإذا كنت قد حققت نجاح زوجى فسأحقق نجاح أخى وحبيبي مراد . .

وقال مراد ميتسما لاخته ابتسامه باردة :

- فكرة يجب أن نحققها واعتمد عليك في تحقيقها . . وهى فكرة توحى
إلى بفكرة أخرى قريبة منها . . وهى أن نكون هيئة أخرى لاكتساب اصوات
البوابين ولاشك ان كل بواب يمكن أن يكون له تأثيرا على اكتساب
اصوات كل سكان العمارة التى يجلس على بابها . .

وقاطعته قائلة وهى تنظر إليه كأنها تشفق عليه من جهله :

- لا . . لا . . إن طبيعة شخصية البواب هى النفاق . . إنه مضطر
بحكم عمله أن يوافق كل سكان العمارة حتى يضمن الحصول على يقشيش
كل شهر . . فهو لا يتحمل مسئولية إقناع سكان العمارة بل ينتظر ساكتا إلى
أن يدفع له أحد السكان أكبر مبلغ لشراء صوته الانتخابى . . ورغم ذلك
فقد يخدع هذا الساكن ويعطى صوته نظير مبلغ آخر قبضه من عمارة
أخرى . . المهم . . لا تعتمد على البوابين . .

وقال ساخرا :

- تحت أمرك . . فانت أستاذة صاحبة خبرة فى الانتخابات . .

وواجهته بمفاجأة أخرى :

- هل اتصلت بالهانوتى . .

وانتفض دهشاً قائلاً :

- أى هانوتى تقصدين ؟

- هانوتى الدائرة . .

وقال مقاطعا :

- ماذا أعمل به ؟

وقالت دولت فى إصرار :

- إنه أقوى شخصية شعبية فى الدائرة وله تأثير كبير فى إقناع

الناس . .

وصرخ مراد نافرا :

- هل تقصدين إقناع الناس بالموت . . إنه لو تدخل فى الدعاية لى بين

الناس فكأنى أنا عزرائيل ، وكأنه يريد من الناس أن تنتخب عزرائيل حتى

يحقق لهم عدد أكبر من الموتى ويكسب هو أكثر من عمليات نقل الجثث . .

لا يا ست دولت . . ابعدى عنى الهانوتى . . ان الناس ستهرب منه وتهرب

منى . . إنه شعار الموت . .

وقالت دولت كأنها تدافع عن نفسها :

- هذا كلام قديم والدنيا تقدمت وأصبحت تضع كل صاحب مهنة فى

مكانه الصحيح . . فالهانوتى ليس مسئولاً عن الموت . . إنه رجل أعمال . .

والناس كلها محتاجة إليه . . بل ويتقربون ويتوددون إليه حتى يهتم بهم

عندما يحتاجون إليه . . ويحاولهم بتخفيض أتعابه . . وهو بحكم عمله

مرتبط بكل عائلات الدائرة ارتباطا يصل إلى حد الصداقة فليست هناك

عائلة لم يكن لها ميت أو فى انتظار من يتوفاه الله من أفرادها . . فهى فى

حاجة دائما للهانوتى وفى حاجة إلى صداقته واحترامه . . وكل عائلة تعلم

انها لو انتخبت مرشح الهانوتى فسيجاملها بالاهتمام بإجراءات الجنازة

والدفن . .

وعاد مراد يصرخ :

- إن الناجب لا يفكر في الموت وهو يدلي بصوته .. وارحميني من هذه السيرة .. سيرة هذا الحانوتي ..

وتركها وفر مبتعداً عنها كأنه يهرب من الموت ..

وجلست دولت وحدها ساهمة تستعيد ذكرياتها .. إنها هي نفسها كانت كآخياها لاتطبق أن تذكر أو تتذكر الحانوتي .. ولا تطليق معرفته شخصياً ولو من بعيد .. إن الحانوتي لا يوجد إلا في يوم الموت .. ولا أحد يطبق أن يعيش هذا اليوم إلا إذا مات له عزيز لديه .. بل إن شخص الحانوتي لا يخطر على بال أحد من المعزيين أو من المشيعين حتى يشكروا أفضله .. كما لا يخطر على بالهم عزرائيل الذي اختطف المرحوم ..

ولكن زوجها شوقي عندما رشح نفسه في الانتخابات منذ خمسة عشر عاما اعتمد اعتمادا كبيرا على حانوتي الدائرة الحاج مدبولي .. كان دائما معه .. ويصحبه كثيرا في طوافه بأحياء الدائرة .. وقد رفضت ايامها ان تشترك مع زوجها في الاعتماد على هذا الحانوتي .. ولم تتنازل بزيارة عائلته ، كما كانت تزور عائلات الناجبين .. رغم إلحاح زوجها عليها ومحاولة إقناعها بأن الحانوتي له شأن كبير في نتائج أى انتخابات .. إلى أن توفي الحاج مدبولي الحانوتي فجأة قبل موعد الانتخابات .. وأصر زوجها على أن تذهب بنفسها لتقديم العزاء لأهله وتشيع الجنازة وترثف عليه كل ما تستطيع من دموع .. وبلغ إصرار زوجها إلى حد الصراخ والتهديد حتى خافت على حياتها الزوجية كما بدأت تخاف على مصير زوجها في الانتخابات .. أى بدأت تقتنع بأهمية الحانوتي ..

ونذهبت إلى بيت الحانوتي .. ورغم أنه في حى محترم وفي شقة من عمارة من العمارات المحترمة .. إلا أنها عندما دخلت فوجئت بمجتمع بلدي بعيدا عن أى مظهر من مظاهر الحياة المودرن .. كل قطع الاثاث من النوع البلدي المتأخر .. والنساء كلهن ملتفات بالملاءات السوداء البلدي .. جالسات على الأرض .. وإن كانت هناك بعض المقاعد الخشبية منتشرة

بجانب الحوائط .. وحتى الكلمات التي يرددنها في نعي المرحوم كلها كلمات قديمة .. بلدي .. يلى دخلت في بيتي الثلاثية يا رجلى .. يالى تركت لى بلقة تملك يا حبيبى .. يالى مافيش حتة في بيتى إلا من خيرك يا روح اللهى .. و .. و .. وكأنهن يعنين إكرام الله للمرحوم بأن زاد دخله بزيادة ربائنه من الموتى ..

وجلست على مقعد من المقاعد التي وجدتها دون أن تنطق بكلمة إلا كلمة تعزية تضطر إليها .. وطبعاً لم تحاول أن ترثف دمة واحدة على المرحوم .. إلى أن جاءت سيدة شابة وجلست بجانبها تتلقى عزاءها .. إنها أجمل شابة بين المعزيات .. جميلة فعلاً جمالاً يلفت النظر حتى نظر النساء .. ولو أنه جمال بلدي .. وتلبس ثوباً على الطراز البلدي .. وإن كانت رقيقة مهذبة في كلامها ، ولا تصرخ هذا الصراخ ولا تردد نفس الكلام التي ترده بقية النساء .. إنها فتحية زوجة عبد الرحمن ابن المرحوم الحاج مدبولي .. وكانت تحمل على ذراعيها مولوداً صغيراً .. وعندما خرج نعيش المرحوم تجمع كل النساء في البلكون ليودعته بصراخهن الوداع الأخير .. والتفت فتحية حولها تبحث عن من يحمل لها طفلها لتنتقل إلى البلكون .. ثم فاجأت دولت بأن وضعت الطفل على ركبتيها .. وتقبلته دولت في صمت وتحملت حتى بعد أن منح نفسه الحرية وتبول على ثوبها .. وما كادت أمه تعود من البلكون حتى أعادت لها طفلها بسرعة كأنها تخاف أن تتركه لها .. ولكن جمال فتحية ورقتها وهي تشكرها خفف عنها ما أصابها من قرف وهي تخطو خارجة داخل ثوبها المبلل بما قدقها به الطفل ..

ورفضت في اليوم التالي أن تخضع لالحاح زوجها أن تذهب أيضاً إلى عائلة الحانوتي ويتم أيام العزاء .. رفضت في إصرار وأجبرته أن تقوم إحدى إخواته بهذا العزاء بدلا منها ..

وحدث بعد شهر أن توفت أم دولت .. وفوجئت بأن فتحية زوجة عبد الرحمن الحانوتي .. الشابة الجميلة الرقيقة هي التي جاءت بنفسها

لتقوم بعملية تغسيل المرحومة أمها . . معتذرة بأن حماتها زوجة الحانوتى مدبولى مريضة وقد جاءت بدلا منها . . ووقفت دولت معها وهى تغسل أمها . . كانت تمد يديها إلى جسد المرحومة فى رفق وحنان وهى تتلو القرآن والدعوات فى صوت رقيق كأنها تغنى لها . . حتى أن دولت أحست بحب أمها أكثر وفتحية تغسلها فشاركتها فى تغسيلها كأنها تتبارك بجسد أمها وهى تلمسه بكفها بل كانت تنحنى وتقبل أمها على جسدها الميت وتسكب عليه دموعها . . كل ذلك من تأثير رقة وحنان فتحية وهى تغسل أمها . .

وقد وجدت نفسها تحب فتحية وتدعوها أحيانا إلى بيتها كصديقة . . وكان زوجها عبد الرحمن قد ورث مسئولية أبيه وأصبح حانوتى الحى . . وإن كان قد تطور بمظهره عن مظهر أبيه وأصبح يرتدى دائما البدة أو القميص والبنطلون لا الجبة والقفطان ، كما كان يظهر أبوه ، وكما هو مظهر الحانوتية . . كما غير من المجتمع الذى كان يعيشه أبوه وأصبح أكثر انطلاقا فى المجالات الحديثة كالجلوس مع أصدقائه فى المقاهى الحديثة والاشتراك فى السهرات والتردد على دور السينما . . وإن كان قد احتفظ بلقب حاج الذى كان يسبق اسم أبيه الحاج مدبولى . . رغم أن أحدا لا يذكر أنه قام بأداء فريضة الحج . . وكان قد احتفظ بصداقة شوقى وسعى معه فى حملته الانتخابية وأصبح أقرب إليه مما كان عليه والده . .

المهم أن دولت تحررت من عقدة الحانوتى . .

وعليها هى أن تحرر أخاها مراد من هذه العقدة . .

وقد بذلت جهداً واسعاً كان من بينه أن أقامت دعوة إلى العشاء دعت إليها الحاج عبد الرحمن الحانوتى وزوجته فتحية وأخاها مراد وزوجته مع حضور زوجها شوقى النائب السابق . . وكانت كلها سهرة الحديث فيها تدور عن الانتخابات . . وقد لاحظت أن أخاها مراد رغم إشتراكه فى العملية إلا أنه لا يبذل مجهوداً كافياً لاكتساب الحاج عبد الرحمن الأصوات والارتباط به وتجنيدِه فى خدمة الانتخابات . .

ولم تكف دولت عن بذل الجهد فى كل مكان . . لقد جعلت من هيئة سمات البيوت التى كونتها قوة كأنها زوابع تقصف بالحقى كله حتى تقتلع كل المنافسين لأخيها فى الانتخابات . . وكل يومها طواف على البيوت والدكاكين والشوارع والحوارى تدعو لانتخاب أخيها . . ولكنها كانت تنور على تكاسل مراد . . إنه لا يشاركها فى كل هذا الجهد الذى تبذله . . أنه يبذل أقل من نصف ما تبذله . . ويتحرك فى هدوء وبرود كأنه يؤدى واجبات رسمية ثقيلة . . ووصلت بها الثورة إلى حد أن صرخت فى وجهه :

- أنت لا تصلح لترشح نفسك فى الانتخابات . .

وقال ساخراً :

- إنك لاتفهمين ما هى الانتخابات . .

وصاحت فى ثورة :

- كيف لا أفهم وقد سبق أن عشت انتخاب زوجى . .

قال مستمراً فى سخريته :

- ولا زوجك يفهم فى الانتخابات . .

وصرخت :

- كيف لا يفهم وقد فاز وأصبح نائباً فى البرلمان . .

وقال فى برود :

- لقد فاز بالمقعد لا لأنه يفهم فى الانتخابات ولا بفضل ما بذله للمرشحين . . ولكن على أيامه كان الاتحاد الاشتراكى هو الهيئة الوحيدة التى توزع المقاعد . . وكانت قد قررت أن يكون لزوجك شوقى مقعد . . وأنت تذكرين صديقنا ابراهيم الذى رشح نفسه فى دائرة أخرى . . وكان

هناك إجماع على أنه نال قمة أغلبية أصوات الناخبين ورغم ذلك أعطى المقعد لمنافسه عبد التواب رغم أنه كان منافسا كسولا يبخل على الناخبين حتى بفناجين القهوة وزجاجات الكازوزة . . ولكن كان هو الذى اختاره الاتحاد الاشتراكى ليجلس على المقعد . .

وعادت دولة تصرخ :

- هذه ادعاءات كاذبة تحاول أن تبرر بها تراخيك وكسلك . . وعلى كل حال فقد انتهى الاتحاد الاشتراكى . . وأصبحت الدنيا أحزابا . .

وقاطعها مراد قائلا فى ابتسامه مرة :

- وأصبحت الانتخابات بالقائمة . . هل تفهمين معنى الانتخاب بالقائمة . .

قالت وهى تتحدها :

- ماذا تريدنى أن أفهم منها ؟

وقال مراد من خلال ابتسامته الساخرة :

- ان الانتخاب بالقائمة معناه انى لست مسئولا عن نفسى ، ولكن الحزب هو المسئول عنى . . أى بعد أن كان الاتحاد الاشتراكى هو المسئول عن توزيع المقاعد وزعت المسئولية على أحزاب كل حزب منها مسئول عن توزيع المقاعد التى يستطيع أن يحصل عليها . . وقد اخترت انا أن اضع اسمى فى قائمة الحزب الذى أحترمه ويضم أصدقائى . . ولكن الحزب وهو يقوم بالمساعى الانتخابية يركز كل اهتمامه على الاسم الأول الذى يوضع على رأس القائمة . . لأن هذا الاسم إذا فاز بأغلبية أصوات الناخبين فازت معه بقية الاسماء التى تحملها القائمة . . لذلك فأنت تجدين القائمة التى أعلنها كل حزب تحمل على رأسها إسما براقا لامعا تعرفه مصر كلها . .

وتجدين بعده أسماء عادية قد يكون بينها أسماء لا يعرفها ولم يسمع بها حتى أهل الدائرة نفسها . . وأنا واحد من هذه الأسماء العادية وكل ما اعتمد عليه هو صاحب الإسم الذى وضع على رأس القائمة . . وأنت تعرفين أنه إسم محترم . .

وتلجلجت دولة قليلا ثم عادت تصيح :

- إنى أريد الناس أن ينتخبوك لشخصك حتى لو اضطروا أن ينتخبوا معك بقية أسماء القائمة . . أريدك أن تكون أقوى حتى من صاحب الاسم الذى يرأس القائمة . . ونحن نستطيع أن نكون الأقوى . .

وقال مراد وهو ينظر إلى أخته كأنها جاهلة مسكينة :

- ليس لنا أى قوة الا من خلال الحزب . . إنها انتخابات بين أحزاب لا بين أشخاص . . أى أن الذى ليس له حزب لا يستطيع أن يرشح نفسه . . وأنت تعلمين إنى إنسان واقعى لذلك فإنى أركز على نشاطى وكل جهدى داخل الحزب واتابع جهوده التى يبذلها حول الإسم الأول بل واشترك معه فى الدعاية الانتخابية لهذا الاسم . . كما اتابع اتصالاته بالهيئات الرسمية الحكومية التى تشرف على إدارة الانتخابات . . والباقى من وقتى وجهدى أبذله للناخبين . . هذا هو الطريق الصحيح لا ضمن الحصول على المقعد . .

وسكتت دولة وهى تائهة . .

ولكنها عادت تبذل كل جهدها للدعاية لأخيها وإقناع الناخبين بانتخابه . .

وسقط مراد فى الانتخابات . .

لم يحصل على مقعد . .

وكان أصدقاؤه يقابلونه مواسين . . كيف حدث هذا . . كيف سقط
في الانتخابات . . وكان مراد يجيب مع ابتسامته الساخرة :

- انا لم أسقط . . لا شيء يمس شخصي . . ولكن سقط الحزب في
ترشيح الإسم الذي وضعه على رأس القائمة . . إنه رأس غير رأسى . .



هو . . والحمار . .

كانت السيارة الحكومية المحترمة تجتاز شارع الهرم إلى أن وصلت
إلى قرب نهايته فاستدارت إلى ضفة ترعة المنصورية . . واستمرت تتحرك في
سرعة هادئة إلى أن وصلت إلى قرية كفر الجبل . . وبعدها انتهى الطريق
المرصوف وبدأ طريقا ليس مسفلتا ، وإن كان مفتوحا أيضا لمروور
السيارات . . ولكن السيارة توقفت منذ نهاية الطريق المرصوف ونزل منها
السائق وانحنى باحترام كبير يفتح الباب الآخر . . وانتصب واقفا بجانب
السيارة كأنه جندي يؤدي تحية رسمية . . إلى أن نزل منصور بيه البرهمي
من السيارة . . وقال في صوت هادئ متعال :

- غدا الساعة السادسة والنصف عند الغروب . . لا تتأخروا . . ثم
سار في خطوات وتيرة نحو حمار واقف كأنه في انتظاره ويمسك به صبي
ريفي وبجانبه خفير يرتدى جلبابا ريفيا محترما زاهيا . .

وانحنى الخفير يقبل يد منصور بك وحاول الصبي أيضا أن يقبل
يده . . وفي بساطة رفع منصور بك ساقه واعتلى ظهر الحمار وقاده فورا في
الطريق غير المرصوف الذي يشق الاراضى الزراعية . .

وقال السائق وهو لا يزال بجانب السيارة :

- الناس تتمنى أن تترك ركوب الحمير وتركب سيارات . . وسعادة
البيه يترك السيارة ليركب الحمار . . ثم استطرد ضاحكا :

- البلى أصله حمار يظل طول عمره حمارا . .

* * *

ومتصور البرهومي يهتز فوق ظهر الحمار مرتديا بذلته الكاملة ورباط العنق يلتف حول عنقه في جلال واحترام . . والحمار تحيل قصير حتى أن أقدام منصور تكاد تلامس الأرض وهو فوقه . . والبردعة التي يجلس عليها فوق ظهر الحمار تبدو قديمة مهلهلة لا تليق بمظهر منصور به . . وقد ابتعد عنه الرجل والصبي اللذان كانا يصاحبان الحمار وأصبحا يجران خلفه من بعيد وكل منهما حريص على ألا يقترب منه . . كأن هذه هي التقاليد التي فرضها عليهما منصور . . أي ألا يقتربا منه وهو فوق ظهر الحمار . .

ومد منصور ذراعه وربت بيده على عنق الحمار وقال بصوت مسموع :

- كيف الحال يا محروس . . الحال يحيرني يا محروس . .

وشد منصور قامته واستطرد قائلا :

- ما رأيك يا محروس . . لقد رفضت في العام الماضي خمسة آلاف جنيه بحجة الإصرار على النزاهة . . أتذكر ماذا كانت النتيجة . . لقد أخذ عباس وكيل الوزارة عشرة آلاف . . ولو كنت قد قبلت أنا الخمسة لما وصل إليه ولا سليم . . الله يرحمه . . وأنا الآن وكيل الوزارة . . والمعرض عشرة آلاف . .

وضحك منصور ساخرا واستطرد :

- إن ظفر أصبع قدمي يساوي رقية عباس . . والعشرة آلاف إذا باعت إلى يجب أن تصبح عشرين . . ولكن النزاهة يا محروس . . الشرف . . إن سمعتي في الحكومة كلها تترك كالبرق . . فكيف أضحي بهذه السمعة . . ولكن إذا رفضت أنا العشرة آلاف فكم تكون إذا وصلت إلى الوزير . .

وارتعشت جفون منصور فوق عينيه وعاد يحدث نفسه بالصوت المسموع :

- كن عاقلا يا منصور . . لقد عشت طول عمرك نظيفا . . إنك لاتخاف احدا . . ولكنك تخاف الله . . وقد عشت طول عمرك والله يغنيك . . ويصون عزتك وكرامتك أمام هؤلاء الجرباع . . ولن تمد يدك إلى سليم واحد حرام . . ما رأيك يا محروس . . هل أنا شريف أم غبي . .

والحمار يتجه إلى طريق آخر متفرع عن الطريق الزراعي . . ثم يدخل في طريق ثالث . . دون حاجة إلى قيادة . . إلى أن وصل إلى البيت في آخر الأرض الزراعية . . ووقف من تلقاء نفسه . . وأفاق منصور من الخواطر التي تعصف بعقله على صوت ابنه شريف وهو يصيح مهللا في قرع :

- بابا . . بابا . .

ونزل منصور من فوق ظهر الحمار في بساطة كأنه تعود على الركوب والتزول . . ومد زراعيه ورفع ابنه يحتضنه ويقبله قائلا :

- اشتريت لك العجلة يا شريف . . وستصلك اليوم . .

وشريف وهو في احضان والده ينظر إلى الحمار في غيظ وسخط وقال لأبيه :

- لماذا لا تأتي إلى البيت بالسيارة يا بابا . . إن هذا الحمار ثقيل الدم وعجوز . . يكاد يموت . .

وقال منصور وهو يبتلع ريقه كأنه يبتلع كذبه :

- ركوب الحمار رياضة يا ابني . . انه ينشط الدورة الدموية . . وقد تعودت على ركوب الحمار « محروس » حتى لم أعد أستطيع أن أستغني عنه رغم انه أصبح عجوزا . .

وسرح منصور في خياله وهو يعود ويقبل ابنه . . أن ابنه لم يفهم ولم يقدر أبدا ماعوده على ركوب الحمار . . وما دفعه إلى أن يظل في حاجة إلى

ركوبه حتى بعد أن ارتقى في حياته عن الطبقة التي تركب الحمير . . بل حتى وهو يشعر أن الناس تعتبره شاذاً غريباً وهو مصمم على ركوب الحمير . . أن هذا الحمير كان دائماً هو الوحى الذى يوحى له بكل ما يقنع عقله . . بل كان مستشاره الذى يناقشه قبل أن يتصرف أى تصرف . . وكل عقل في حاجة إلى أن يستعين بما يوحى له . . لو كان من الشعراء مثلاً لاعتمد على المناظر الطبيعية أو على الظهور الجميلة يستوحى آيات الشعر التى يكتبها . . أو قد يعتمد الرجل الذى يفكر على ما توحى له به امرأة يحبها . . أو قد يعتمد على ادمان تدخين الحشيش أو ادمان الخمر وربما اعتمد على صديق بالذات يحس وهو يتحدث اليه ويناقشه أن عقله منطلق متفتح صريح . . ولا يهم ما يقوله هذا الصديق من رأى ، بل المهم هو أن المناقشة تصل بعقله هو إلى رأى . . وهو لا يحس بعقله متفتحة منطلقاً الا وهو على ظهر حمير . . وتعود بمجرد أن يركبه أن ينطلق معبرا عما يدور بعقله بصوت عال مسموع . . لا يسمعه الا الحمير . .

وقد بدأ الارتباط بالحمير منذ كان طفلاً فقد كان الحمير يأخذه كل صباح إلى الكتاب . . وكان لا يكاد يعتلى ظهره حتى يبدأ في مراجعة الدروس التى تلقاها والتى سيحاسبه عليها شيخ الكتاب . . وقد يبدأ في تلاوة الآيات القرآنية المفروضة عليه أن يحفظها . . ثم يلكر الحمير بقدميه ويصيح فيه . . سامع يا حمير . . اسمعنى ثانية هذه الآية . . ويعود هو نفسه تلاوة الآية . . ويصيح مردداً دروس اللغة العربية . . كاف ضمه كو . . كاف كسره كى . . ثم ينهال بكفه ضرباً في الحمير وهو يصيح . . احفظ يا حمير . . وقد يصيح يروى مشكلة من المشاكل التى تطرا عليه . . الواد محسن يصطاد العصافير ببندقية أبيه الرش . . ماذا أفعل أنا . . أن أبى يرفض أن يعطينى ببندقية . . هل أسرقها . . ثم ينغز الحمير صائحاً . . ما تشوف لها طريقة يا حمير . .

حتى بعد أن كبر ودخل المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم وصل إلى كلية الحقوق بالجامعة كان يركب الحمير كل صباح إلى أن يصل إلى شارع

الهرم . . ومن هناك يستقل الاتوبيس إلى حيث يذهب . . ويعود ليجد الحمير في انتظاره ليعود به إلى البيت . . وهو كما هو . . لا يكاد يركب الحمير حتى ينطلق لسانه بكل ما في عقله . . وحتى بعد أن أصبح موظفاً في الحكومة لم يفكر في أن يستبدل الحمير بسيارة ولو صغيرة . . أو بموتوسيكل . . أو حتى بدراجة . . كما لم يفكر في الانتقال من بيت العائلة القريب من قرية كفر الجبل . . والحمير لا يزال ينتظره وأن كان لم يعد يحمله إلى شارع الهرم بل يكتفى به إلى بداية الطريق المرصوف الذى كان قد شق على شاطئ المنصورة . . وكان حميره الأول يسميه « مبروك » . . ولكن « مبروك » انتهى . . مات . . فبدأ يركب « محروس » . . وهو لم يشتر « محروس » . . والا لما اشترى هذا الحمير القصير الهزيل . . ولكنه كان الحمير الذى وجدته في البيت . . من أفراد العائلة . . وتعود عليه بسرعة . . بل وجد نفسه وهو فوقه ينطلق أكثر مع افكاره وينتهى إلى آراء كانت دائماً صائبة . . إنه مستبشر دائماً بمحروس . . ولا ينسى الأيام الطويلة التى قضاه معها قبل أن ينتهى إلى طلب نعمات للزواج . . لقد كانت كل عائلته ترفض هذا الزواج . . وهو نفسه كان يجد أن العائلة على حق . . فنعمات هى ابنة فلاح مؤجر عادى لا يليق بنسب العائلة . . التى تملك عشرين فدانا ملكية خالصة . . حتى لو وزعت الأرض بين الأخوة فلن يقل نصيب كل منهم عن خمسة افدنة . . فكيف يتزوج ابنه فلاح لا يزال يحمل الفأس . . وأولاده كلهم أصبحوا عمالاً وواحداً منهم سافر إلى ليبيا والثانى سافر إلى العراق . . انها فضيحة عائلية لو تزوج نعمات . . ولكن الواقع أن نعمات كانت ملء أحلامه منذ نمو شبابه وكانت لاتزال صبية . . ولم تكن كبقية الفلاحات . . لم ترض أبداً أن تستجيب لأبن صاحب الأرض . . كأنها تعتبر نفسها من عائلة كبيرة وليس هناك طريق لمن يريدتها الا الزواج . . وقضى شهوراً وهو يناقش الحمير « محروس » دون أن يستسلم لوجيه . . إلى أن استسلم أخيراً وتزوج نعمات . . وأصبح يعيش معها النعيم كله . . والهناء كله . . ونعمات هى التى توحى له دائماً بأن يبقى في هذا البيت . . لقد هاجرت عائلته كلها من كفر الجبل وهو وحده الذى بقى فيها . . كأنه تزوج كفر الجبل منذ تزوج نعمات . .

وفي صباح اليوم التالي كان الصبي يقف بالحمار « محروس » أمام الباب ويقف بجانبه الخفير . . . وخرج منصور البرهومي يحمل ابنه شريف . . ثم أنزله على الأرض قائلاً بعد أن قبله :

- ستصلك السيارة لتحملك إلى المدرسة . . . بالسلامة . .

وقال شريف كأنه يهم بالبكاء :

- تعال معي في السيارة يا بابا . .

وقال منصور ضاحكا :

- لو كنت تحب بابا لتركته يزاول رياضته ويرعى الدورة الدموية . . ثم اعلتى ظهر الحمار وابتعد به بسرعة من أمام ابنه كأنه يهرب من محاسبتها له . . وظل الصبي والخفير يجريان وراء الحمار من بعيد . . كما تقضى التقاليد . . وانطلق منصور يقول بصوت عال :

اسمع يا محروس . . لنكن واقعيين ونعترف بأن شركة مدبولي للمقاولات لا تسرق ولا تغش . . إن المشروع الذي اتمته في العام الماضي شهد له جميع الخبراء الذين تسلموه بأنه في منتهى الروعة والكمال . . وقد مضت شهور منذ تسلم هذا المشروع ولم يظهر فيه شرخ واحد ولا سقطت منه طوبة . . صحيح أنهم يدفعون لكثير من الموظفين نظير تسهيل المعاملات ، ولكنهم لا يدفعون على حساب العمل . . أو من تكاليف المشروع نفسه . . ولكنهم يدفعون على حساب رفع قيمة العملية . . أى إذا كانت التكاليف تصل إلى ألف جنيه يرفعونها إلى عشرة آلاف حتى يغطوا قيمة التسهيلات التي يحصلون عليها من الموظفين . . أى إن الموظف لا يأخذ مليما من شركة مدبولي . . ولكنه يأخذ من الحكومة . . كأنه يأخذ علاوة أو مكافأة شرعية لا أكثر .

وسكت منصور البرهومي قليلا كأنه يستعيد أفكاره ، ثم قال وهو يربت على عنق الحمار محروس :

- لماذا تسمى هذه العلاوة رشوة . . حتى إذا لم تكن علاوة فلماذا لا تكون سمسة . . أو عمولة . . العمولات التي تعودت الشركات أن تدفعها للوسطاء في أى عملية تقوم بها . . إن موظف الحكومة هو الوسيط بين الشركة والدولة . . أى أن من حقه أن يحصل على عمولة . . وكل كبار وصغار الموظفين يعيشون على هذه العمولات . . بل لعلك سمعت عن وزراء بل ورؤساء وزارات كان لهم نصيب في هذه العمولات رفعتهم إلى مستوى أصحاب الملايين . . ولو كانت الدولة قد وصلت من الرقى إلى حد التعامل مع الواقع لاعترفت بنظام العمولات واعتبرته نظاما قانونيا شرعيا . . وتركت موظفيها يحصلون على حق العمولة علنا . . وإن كان الموظفون سيخسرون لأن قيمة العمولة الشرعية تكون دائما أقل من قيمة العمولة السرية غير القانونية . .

وانحنى منصور يربت على عنق الحمار محروس قائلاً كأنه يلوم نفسه :

- لماذا أكون أنا الموظف الوحيد في الدولة التي يتمسك بالشرعية . . وبالقانون . . وبالتزاهة . . وبالشرف . . إن كل موظفي الدولة يتقاضون عمولات تصل من جنيه واحد إلى مائة جنيه إلى مليون جنيه . . وكلهم والحمد لله معروف عنهم التمسك بالشرعية وبالقانون والتزاهة والشرف . . ثم اعتدل منصور فوق ظهر الحمار ، وقال وهو يبتسم كأنه هذا واستقر على الرأي الذي جاء الوحي به :

- حاضر يا محروس . . اتفقنا . . سأكون واقعيًا ولن أخيب أمل مدبولي وشركته . .

وكان الحمار قد وصل إلى أول الطريق المرصوف . . . وكانت السيارة الحكومية المحترمة تقف في الانتظار . . وانحنى السائق في احترام كبير يفتح

الباب ووقف منتصباً كالجندي في موقف رسمي . . الى أن نزل منصور بيه البرهومي من على ظهر الحمار وركب السيارة . .

واللقى منصور بمندوبى شركة مدبولى في مكتبه بالوزارة في اجتماع سريع . . وفي نفس المساء كان المهندس عبد المنعم مدبولى كبير مهندسى الشركة نفسه في زيارة منصور ببيته القريب من كفر الجبل . . مدعوا على العشاء . . ولم تظهر بينهما زوجته نعمات . . ممنوع . . انها فلاحه وقد احتفظ بها الى اليوم كفلاحه . . وتقاليد الفلاحين اشرف من تقاليد اهل المدن . . ممنوع أن تشارك الزوجات في اجتماعات الرجال . .

وتم الاتفاق على كل شيء . . أن شركة مدبولى دفعت لوكيل الوزارة السابق عشرة آلاف . . رحمه الله . . ولكنها ستدفع لمنصور الوكيل الحالى خمسة عشر الفا . . وقال المهندس الكبير عبد المنعم مدبولى :

- انك اكبر . . واصعب . .

وقال منصور ساخراً :

- المشروع اكبر . . ان ميزانيته توازى ثلاثة أضعاف ميزانية المشروع السابق . . وبالحساب الرقمى فان المبلغ لايجب أن يقل عن عشرين الفا . .

وقال المهندس الكبير هو يتهند كأنه يستسلم :

- امرك . . ودعنى اتشرف بدعوة نفسى الى العشاء عندك مرة أخرى يوم الخميس القادم . . ويكون قد تم تجهيز العقود . .

وقال منصور ساهماً :

- ياذن الله . .

وقام يودع المهندس الكبير . . سيعود اليه الخميس القادم وهو يحمل

حقيبة صغيرة تضم العشرين الفا . . إنه يعلم أن ما يتفق عليه لايدفع بشيك على البنك . . بل يدفع كأوراق مالية . . ويجب أن يدقق بالآ تحمل هذه الاوراق ارقاماً مالية متتالية . . وإلا كان من السهل ضبطه بها وإثبات التهمة عليه . . ومهما كان يجب أن يفرح . . إنه اكبر مبلغ يصل اليه دفعه واحدة في حياته . . وهو لا يمكن أن يتهم نفسه بالرشوة . . إنه ينال حقه . . حق العمولة . . حق الواقع . .

* * *

ولم يكن قد مضى اكثر من أربعة أيام . .

وعاد منصور البرهومي من مكتبه ووقفت به السيارة في آخر الطريق المرسوف ورأى الحمار « محروس » في انتظاره . . وترك السيارة متدفعاً على غير عادته وهرع الى الحمار كأنه يهجم عليه ثم رفع ساقه وضربه بالشلوت ضربة عنيفة . . وقفز الحمار من الضربة ، ولكنه لم يستطع أن يفر والصبى الصغير لايزال يمسك به . . فضربه منصور شلوتاً آخر كأن ساقه التى يضرب بها ساق مجنون . . ولكنه رغم ذلك أمسك بالحمار وركبه واستطاع أن يخضعه لإرادته وسار به نحو البيت . . وما كاد يبتعد به خطوات حتى صاح :

- أتدرى ماحدث يا حمار . . لقد وضعت كل شركة مدبولى تحت الحراسة . . وقبضوا على عبد المنعم مدبولى وبدأوا التحقيق معه . . وهم يقولون انه اعترف بكل شيء . . الحمد لله . . انى لم اوقع له اى ورقة ولم يضع في يدى ولا ملزم . . الله انقذك في آخر لحظة يا منصور . . بعد يوم واحد كنت ستوقع كل الأوراق وتتسلم العشرين الف جنيه . . كنت سأضيع نتيجة غياب هذا الحمار « محروس » . .

وضرب بطن الحمار بقدميه المتدليتين فوقه وهو يصيح :

- كان يجب أن تقدر أن الأحوال تغيرت . . وإن الصفقة التى تمت في العام الماضى لايمكن أن تتكرر هذا العام . . ولكنك كنت غيباً . . اول مرة كاد

غباؤك يلقى بى فى داهية ويخرب بيتى . . لقد أصبحت حمارا عجوزا
لاستطيع أن توحى ، أو تلهم إلا بخراب البيوت .

وعاد يضرب فى بطن الحمار « محروس » بقدميه ثم هدأت أنفاسه
قليلا وعاد يقول :

« ولكنهم قد يطلبونى فى التحقيق للشهادة ضد مدبولى . . ان كل
الوزارة تعلم انى كنت ثائرا ضد صفقة العام الماضى وأنى استطيع أن أشهد
بكل التفاصيل . . ولكنى لو شهدت على مدبولى فقد بفضحنى ويفشى السر
ويعلن انى طالبته بعشرين الف جنيه نظير توقيع الأوراق . . ولكنه لايمك
أى ورقة أو أى دليل يثبت به هذا الكلام . . وسأكذب حتى لو اضطرت أن
أقسم بالقرآن كذبا ويحل على غضب الله . . عاجبك كده يا حمار ياغبى . .
كأنى أصبحت على شفا هاوية . . اما أن أنفذ بجلدى أو تحل بى داهية . .
هذا ما وصلت اليه يا حمار .

وكان الحمار قد وصل به الى البيت ونزل من على ظهره ورفع ساقه
وضربه بالشلوط مرة أخرى ثم التقط عصا غليظة كانت ملقاة على الأرض
وانهال عليه ضربا . . وهو يصيح :

« القى بى الغباء فى داهية . . لم أكن أدري أنك فى منتهى الغباء . .
يا حمار . .

وكان ابنه شريف قد خرج اليه وكأنه فرح وهو يرى أباه يضرب فى
الحمار فالتقط هو الآخر عصا من على الأرض وأخذ يضرب فيه . . الى أن
وقع الحمار « محروس » على الأرض وهو يرفس بسيقانه الأربع فى الهواء
كانه يستغيث . . والقى منصور البرهوى بالعصا من يده . . وأنفاسه
تتهدج . . وكله يرتعش . . ثم صاح فى وجه الصبى والخفير :

« ابحثا لى عن حمار آخر . . لن أخرج غدا بهذا الحمار . .



وقشلت فى الطريق الآخر ..

عادت زينب من المسرح فى الساعة الثانية صباحا بعد أن انتهت
المسرحية ودون أن تحيى أحد من أعضاء الفرقة المسرحية أو تقول
كعادتها . . تصبح على خير . . وفتحت باب البيت ودخلت وخطواتها ترتعش
بها . . ووقفت برهة تنظر الى زوجها الدكتور محجوب وهو جالس كعادته على
مكتبه . . بينما رفع اليها محجوب رأسه يستقبلها صامتا بابتسامة كبيرة
طيبة فى انتظار أن تقدم عليه وتلقى نفسها على ساقيه كعادتها كأنها ترتاح
من مشوارها الطويل . . وتقبله . . وتقول له كلمات حلوة ترفع من خلوة
قيلاتها . . ولكنها وقفت بعيدة عنه ، وقد انتقلت رعشتها الى كل ملامح
وجهها ، ثم ألفت بنفسها على الأريكة وانهارت فى الكاء بصوت عال
كما يبكى الأطفال . .

وظل محجوب جالسا الى مكتبه وابتسامته الواسعة على شفتيه . . لقد
تعود من زوجته زينب على كثير من المفاجآت . . ليست هذه هى المرة الأولى
التي تعود باكية وتنهار فى البكاء . . وقد تعود اليه يوما وتفاجئه بالاندماج فى
هز وسطها والرقص . . وقد تعود اليه وتسقط مستلقية على ساقيه وتنام
فوراً نوما عميقا الى أن يحملها بين ذراعية ويرقداه على فراشهما . .

وقد ظلت زينب تبكى مدة طويلة وجسدها يرتعش كله فوق الاركة . .
الى أن هبت جالسة وصاحت من خلال دموعها :

« هذه آخر ليلة أمثل فيها هذه المسرحية . .

وقال محجوب فى هدوء وكأنه يربت عليها بابتسامته :

- لماذا .. ماذا حدث أكثر مما يحدث ؟

وعادت زينب تصيح :

- إنى لم أعد أطيق هذا الثعبان .. انه لن يشبع من لدغى بسمومه
الا بعد أن يطمئن الى أنه قضى على .. بعد أن يتأكد من أنى لم أعد شيئاً
بجانب عظمة جنباه .. وقد قلت لك انه استدعانى بالامس وقال لى انه
سيجرى تعديلاً بسيطاً فى الحوار يلقيه فى المشهد الذى يجمعنا فى الفصل
الثانى .. ولم اعترض .. انى لا أستطيع أن اعترض فحضرتة هو صاحب
الفرقة وصاحب المسرح وهو الأمر الناهى ولا راد لكلمته .. ثم إنى لم
اعترض لأن هذه المسرحية تدور كلها حول شخصية البطلة .. وأنا
البطلة .. أنا كل شىء فى هذه المسرحية .. أنا صاحبة كل هذا النجاح الذى
يضع به المسرح كل ليلة .. وإذا أراد أن يزيد كلمتين على الحوار الذى
يلقيه أمامى فى هذا المشهد فلا يقلل هذا من قيمة الدور الذى اقوم به ..
وقد سألته بعد أن قال لى انه سيعدل فى الحوار .. هل تقوم ببروفة
جديدة .. فرد على بأن التعديل لن يشمل المشاهد وكل ما على هو أن أنتظر
الى أن يتم المونولوج الذى يلقيه .. ووافقت بلا اهتمام .. الى أن فوجئت
بالمصيبة هذه الليلية ونحن نمثل .. إنه لم يضيف الى الحوار كلمة
أو كلمتين .. أضاف لنفسه مونولوجاً استمر أكثر من ربع ساعة .. يؤديه
مع حركات غريبة جديدة يقوم بها .. وقد كدت أجن وأنا فى انتظار أن
ينتهى من الإلقاء حتى أبدا أنا .. بل كنت أقاوم أن أهجم عليه ونحن على
خشبة المسرح حتى أسد فمه عن الإلقاء .. إن ما أضافه يشوه
المسرحية .. ولكنه لم يكن يهمه أن يشوهها كان كل ما يهمه أن يأخذ
المتفرجين منى ويربطهم بنفسه .. ومنذ البداية وهو يكره هذه المسرحية
لأنها تقوم على شخصية البطلة .. لا على شخصية البطل .. أى عليه
هو .. بل انه لم يقلل عرض هذه المسرحية إلا تحت الحاح المتعهد الذى
يعدّه بكل إيرادات المسرح .. حتى أنه غير فى عنوانها الأصلي .. لقد كان
العنوان « راهبة فى طريق الجحيم » .. ولكن كلمة راهبة تنسب الى

امراة .. أى الى بطلة المسرحية .. فألقى كلمة راهبة من العنوان وجعله
« فى طريق الجحيم » .. حتى لا أمتاز عنه .. حتى لايتأتى المتفرجون الى
ولا يأتون إلا اليه .. ولن أستمّر فى تمثيل هذه المسرحية اذا صمم على
الاستمرار فى الحوار والمشهد الذى أضافه لنفسه .. بل انى لن أظهر أبداً
على مسرح وجدى فرج .. ولن أعمل مع هذا الأستاذ الكبير الحقيقى
أبداً .. لن أظهر معه أبداً على مسرح واحد ..

وقام الدكتور محبوب من على مكتبته وجلس بجانب زينب واحتضنها
بزرّاعه وقبلها فوق جبينها ثم قال فى هدوء :

- ليس فى كل هذا شىء غريب .. إن القديم يغاردانما من الجديد ..
وهو نجم قديم ، وانت نجمة جديدة تلمعين بسرعة .. وحتى عندنا فى كلية
الطب .. الأستاذ يغار من المدرس .. والمدرّس يغار من المعيد .. والقديم
يحاول أن يسد الطريق أمام الجديد .. وأخبار العيادات الطبية الخاصة
يتناقلها الأطباء كأنها أسرار الأعداء .. والطبيب الذى تدرّ عيادته دخلاً
أكثر من الآخرين يواجه أعداء أكثر كل منهم يبحث عن طريق لخراب هذه
العيادة والقضاء على هذا الطبيب .. هذه هى الدنيا .. والنجاح ليس
طريقاً مريحاً يجتازه الموهوبون .. النجاح معركة .. ليست معركة بين
الأعداء ، ولكنه معركة داخل بوتقة تضم الزملاء الذين يسبّرون فى طريق
واحد ..

وقالت زينب وهى تجفف بقية دموعها :

- حتى لو كانت هذه هى طبيعة الحياة فهذه هى آخر ليلة أمثل فيها
هذه المسرحية .. بل هذه هى آخر ليلة يجمعنى مع وجدى مسرح واحد ..

وقال محبوب فى هدوء

- لا تستطيعين أن تتخذى قرارك الآن وانت متعبة منهكة ..
انتظرى الى الصباح وايدئى التفكير من جديد ..

وقام من جانبها . . . ودخل الى المطبخ وأعد لها كوبا من النعناع
المغلى . وفتح درج مكتبه وأخذ قرصا من الأقراص المنومة . وعاد إليها
قائلا :

- المهم الآن أن تنامى . .

وجلس بجانبها الى أن شربت النعناع وابتلعت القرص وهو يحاول أن
يحدثها عن أخبار يومه وهو يعلم أنها لاتسمعه . . ثم أخذها تحت ذراعه
ودخل بها غرفة النوم وأرقدوا على الفراش . . ورقد بجانبها ووجهها يملا
عينيه وابتسامته لاتزال بين شفثيه . .

انه منذ رأى زينب وهى جارته فى شارع المنيرة وهى هذه الشخصية ،
ولم تتغير . . لعلها كانت ممثلة منذ ولدت . . ولعلها كانت تلقى الواوة . .
وتصيح واء . . واء . . بلهجة تختلف عن واوة جميع الأطفال . . كأنها
ولدت وهى تحفظ الواوة وتجيد القاءها وتمثيلها أمام المتفرجين . . وقد كان
أكبر منها بسبع سنوات . . ولكنه عاش وهو يحس دائما أنها معه رغم
الاختلاف الواضح بين شخصيتيهما . . فهو هادئ دائما . . منزوى . .
متحفظ . . وهى دائما شعلة من نار . . لاتكف عن الحركة وعن الضحك
وعن البكاء وعن الفرجة وعن المعارك . . وهى منذ وعث وهى تمثل . . كانت
تقرأ القصص وأبيات الشعر وتمثلها أمامه عندما تكون فى زيارة أخته ،
أو يكون فى زيارة أخيها . . ثم أصبحت تأتى إليه وحده لتمثل أمامه آخر
ما حفظته . . وقد اشتركت فى فرقة التمثيل بكل مدرسة دخلتها ، وكانت
تمثل فيها دور البطلة . . وكان يستطيع أحيانا أن يذهب الى حفلات
مدارسها ليتفرج عليها وهى تمثل . . والواقع أنه لم يهر أبدأ التمثيل ولم
يفكر أبدا فى أن يمثل معها . . بل انه لم يكن أيضا من هواة الفرجة على
المسرحيات أو على الأفلام السينمائية . . ولكن كان التمثيل بالنسبة له هو
فرصة لقاء مع زينب . . ولم يكن يحس بها أنها ممثلة وهى تمثل ، وكان كل
ما يحس به أنها زينب . . وكانت تعلم عنه أنه ليس فنانا متخصصا فى الحكم

على تمثيلها ، ولكنها دائما كانت تحب أن تقوم بالتمثيل أمامه ربما لأنها
أيضا تعتبر التمثيل أمامه مجرد فرصة لقاء به . . وكان لزينب موهبة أخرى
اشتهرت بها بين عائلات الحى وهى موهبة الرقص البلدى . . إنها رائعة
وهى ترقص . . بل إنها كانت تبتكر حركات جديدة فى الرقص كأنها تتطور به
الى فن أرقى . . ولكنه كان يحس بنوع من الخجل والحياء وهو يشاهدها
ترقص . . خصوصا اذا رقصت أمام مجموعة من اهل الحى . . كان
لايستطيع أن يتحرر من تحفظه الذى يعتبر أن الرقص عيب وتحريض
بالنسبة للبنات خصوصا اذا رقصت أمام الناس . .

وكبرا . . والتحق بكلية الطب وأصبح طبيبا . . وبعد سنوات كانت
قد التحقت بمعهد التمثيل وأصبحت ممثلة . . وتزوجا فى بساطة كان
رواجهما كان قدرا طبيعيا وعدا به منذ البداية وكتب عليهما . . وتزوجها
وهو يعلم أنها ممثلة لها كل الحرية وكل الحقوق التى يتطلبها فنا . .
وتزوجته وهى تعلم أنه مترزمة ومتحفظ وليس من هواة التمثيل وإن كان
يعترف به كفن . . وكان الفارق الكبير بينهما أنه لا يحس بحاجته الى
الناس . الى الشهرة . . بل إنه لم يفتتح عيادة خاصة تجذب المرضى بل
تفرغ للأبحاث والدراسات الخاصة بعلم الطب . . وكان قد عين معيدا فى
كلية الطب ومع السنوات أصبح مدرسا ثم استاذ . . ودون أن يتعمد
أصبح مشهورا . . لا كطبيب معالج ولكن كأستاذ من علماء الطب ورغم
شهريته فهو لا يزال صاحب دخل محدود لأنه لم يفتتح عيادة يمولها
المرضى . . أما هى فإنها متفرغة لفن فى حاجة الى الناس . . الى الجمهور . .
وكل ما فى عقلها هو السعى إلى إكتساب الجمهور وهى تمثل أمامه على
المسرح . . وتحاول ألا ينساها الجمهور ، فتسعى وراء الصحف لتكتب
عنها وتنتشر صورها . . وتثير مشاكل فنية تجعل الجمهور يدخل فى مناقشات
حامية حولها . .

ورغم ذلك فقد استطاعا أن يوفقا بين الشخصيتين . . وقد ربط نفسه
بمواعيد عمل زوجته . . تعود أن يقضى الليل يعمل فى أبحاثه الطبية الى أن

الى هذا الحد كان التوافق بين شخصيتهما . . وكان يعيش معها كأنه يعيش مسرحية رائعة تمثلها له وحده . . وكانت تعيش معه كأنه الواقع الوحيد الذى يريها من متاعب الفن . . الواقع الذى تضحك فيه ، وتبكي وتطلق جنونها ، أو تعيش هدوها بلا تمثيل . .

ورفع محبوب عينيه الى وجهها ومعه ابتسامه ذكرياته . . واطمأن الى انها نامت . . وانحنى يقبلها قبلة صامته كأنه يمسها بشفتيه تبركا بها . . ثم اطفأ النور . .

* * *

وقامت زينب من النوم فى الصباح التالى وهى مقزوعة . . كأن الفكرة التى تشغل فكرها لم تنم معها بل ظلت متيقظة فى رأسها طوال تأثير الدواء النوم الذى أعطاه لها زوجها . . إلى أن أفرعتها الفكرة من نومها بعد أن انتهت سيطرة النوم عليها . . وتفتحت عينها على نفس الثورة التى نامت عليها . . لن تستمر فى تمثيل هذه المسرحية . . بل لن تقف على المسرح أبدا بجانب هذا الفنان الحقيقى وجدى فرج . .

ولكنها وجدت أفكارها تتغير . . ووجدت احساسا فى العناد والتحدى يتغلب عليها . . انها فنانة فى منتهى عبقرية الفن . . وهى ممثلة وصلت الى قمة التمثيل فى المسرح العربى كله . . ولن يستطيع أحد مها وصلته به الغيرة والسقالة أن يبعدها عن المسرح . . إن دقيقتين تظهر فيهما على المسرح يساويان ليلة كاملة يظهر فيها على المسرح أى ممثل أو ممثلة . . وستثبت ذلك لهذا الأستاذ وجدى فرج . .

ولم تحدث زوجها فى شيء . . ولم يحاول أن يحدثها ، وقدر أنها هائمة تبحث عن طريق . . وتركها إلى عمله . . وظلت هى فى البيت مستغرقة فى وضع خطة تعد كل خطوة ، وكل كلمة فيها كأنها تضع مسرحية جديدة . . وخرجت من البيت الى المسرح فى الساعة الواحدة بعد الظهر . . انه موعد اجتماع أفراد الفرقة لإجراء البروفات . .

تعود زينب من المسرح . . ونظم مواعيد عمله بحيث لا يخرج من البيت قبل العاشرة صباحا بعد أن تكون زوجته قد استيقظت . . وهى قد بذلت أكثر حتى تجمع بين الشخصيتين . . فهو لا يستطيع أن يندمج فى الوسط الفنى والمسرحى ويشارك الفنانين والفنانات فى سهراتهم وحكاياتهم فامتنت هى تلقائيا عن الاندماج فى هذا الوسط دون أن تفقد حب أفرادها واحترامهم . . وهو لا يستطيع أن يتردد كثيرا على المسرح ليشاهدها كل ليلة وهى تمثل أو على الأقل ليصحبها الى البيت بعد انتهاء المسرحية . . وقد تعودت منه الا يأتى الى المسرح إلا ليلة واحدة فى كل مسرحية جديدة تمثلها . . وقد كانت تحس فى ليلة وجوده بين المشاهدين أن تمثل أحسن وتبذل مجهودا أكبر ، كأنها تمثل له وحده وتتمنى أن تبهره بتمثيلها . . كما تعودت أن تعود الى البيت فى الليل وحدها بعد أن اتفقت مع سائق تاكسى خاص بأن ينتظرها كل ليلة . . فهى لاتملك سيارة لأنها لم تتعلم قيادة السيارات ولا تحب أن تتعلمها . . وكان زوجها الدكتور محبوب لا يتحدث كثيرا عن فنها أو عن قيمة ماتقدمه من فن ، ولكنه كان يحب أن يستمع اليها مهما أطالت فى الحديث عن نفسها وعن فنها . . وكانت تصدر عنه أحيانا آراء غريبة . . فهو لا يتمنى لها مثلا أن تعمل فى السينما وتمثل فى الأفلام . . فالسينما فى نظره ليست فنا ولكنها صناعة . . والاستديوهات مصانع وليست مسارح . . مصانع مقفولة حتى لا يرى الجمهور مايجرى فيها كالشقق الخاصة المخصصة للقاء الرجال والنساء والراقب عليهم . . انه يغار عليها من العمل فى ستديو سينمائى ولا يغار عليها من الظهور على المسرح . . وهى لأنها تعودت الاستسلام لآرائه تلقائيا رفضت العمل فى الأفلام السينمائية رغم العروض التى تعرض عليها بإلحاح . . وقد أحس أن زوجته أصبحت أشهر منه . . وربما أحس أن شهرتها وصلت الى حد أنه أصبح يعرف بها . . الدكتور محبوب زوج الفنانة زينب . . وربما كان يمكن أن يتضايق ويثور احتفاظا بشخصيته الكاملة بعيدا عن شخصية زوجته . . ولكن أبدا . . انه فخور بها . . ويتباهى بأن ينسب اليها أو تنسب اليه . .

ودخلت مباشرة إلى حجرة الأستاذ وجدى ووقفت أمامه وهى تبسم في مرح وتبالغ في حيويتها كأنها أمام أستاذها الكبير وصديقها الحميم .. إنها تمثل أصعب دور في حياتها .. دور النفاق والخداع .. وقالت لي بساطة :

- إنى أرى أن يوقف عرض هذه المسرحية ..

وقال الأستاذ وجدى في دهشة :

- لماذا .. لم يمض على عرضها سوى ثلاثة أشهر ..

وقالت فوراً :

- هذا يكفى .. حتى لو كانت ناجحة فيجب ألا نغترط في استغلال هذا النجاح حتى يملها الناس ..

وقال وجدى وهو يبتسم كأنه بدأ يقتنع :

- ولكن أى مسرحية ترين أن نعرضها بعدها ..

وقالت كأنها تردد حواراً حفظته :

- مسرحية المجنونة .. لقد مضت سنوات لم تعرض فيها ..

وقال وجدى في دهشة :

- ولكن ليس لك دور رئيسى في مسرحية المجنونة .. فلماذا ترشحينا ..

وقالت في مرح مفتعل :

- لأنى أحبها .. إنها المسرحية التى بدأت بها الظهور معك على المسرح .. وقال وجدى وهو في منتهى الفرح والسعادة :

- أنا موافق ..

وكانت زينب قد اختارت ترشيح مسرحية المجنونة وهى واثقة أن وجدى سيرحب بها فوراً .. فهى مسرحية تدور حول شخصية بطل واحد ، وهو الذى يقوم بتمثيل هذه الشخصية ، ويستطيع أن ينفرد بجمهور المتفرجين طوال الفصول الثلاثة دون أن يستطيع أى ممثل آخر أن يشاركه في إجتذاب هذا الجمهور .. وكانت هذه المسرحية قد بدأت وهى لا تزال تبحث عن مكان لها بين الممثلين بعد تخرجها من معهد التمثيل .. ولم يكن سهلاً أن تجد باباً مفتوحاً لها .. إلى أن علمت أنهم يبحثون عن ممثلة تقوم في هذه المسرحية بدور امرأة عجوز تجاوزت السبعين من عمرها فتقدمت تسعى لأداء هذا الدور رغم أنها صغيرة وكانت لا تزال في الثانية والعشرين من عمرها .. ودهش الأستاذ وجدى من هذه الشابه التى تريد أن تمثل دور العجوز .. وقالت له .. جربونى في إحدى البروفات .. وقد عهد إليها وجدى بالدور فعلاً ربما اشفاقاً عليها .. فهى فنانة غليظة تبحث عن دور لها على المسرح .. ولكنها أثبتت قدرتها في هذا الدور رغم أنه كان دوراً قصيراً لا يتعدى الاداء مدة دقيقتين أو ثلاث في كل فصل من فصول المسرحية .. ولكنه كان الدور الذى دفعها خلال سنوات إلى أدوار أخرى أكبر وأهم حتى أصبحت تنفرد بالبطولة في مسرحية « الطريق الى جهنم » ..

وقد تعمدت زينب أن تختار هذه المسرحية التى تمثل فيها هذا الدور القصير كأنها مصممة على تحدى وجدى ، وعلى أن تثبت له أنه حتى لو كان هو بطل المسرحية ، وكان ينفرد بتمثيلها من أولها الى آخرها .. فإنه يكفىها أن تظهر وهى تمثل أمام الجمهور ولو دقيقة واحدة لتأخذ منه الجمهور كله معترفاً بعبقريتها التى تتحدى بها عبقريته ..

وقد أوقفت فعلاً مسرحية « الطريق الى جهنم » وبدأ الإعلان عن مسرحية « المجنونة » وقضت زينب أياماً وهى تعد نفسها للدور الصغير .. دور المرأة العجوز .. وتضع فيه لهجات تليقها برنات جديدة .. وتبتكر في اختيار الملابس والمكياج الذى ستظهر به على المسرح ..

وبدا عرض المسرحية ..

وظهرت زينب تؤدى دورها الذى لم يستغرق فى الفصل الاول سوى دقيقتين فإذا بالجمهور يصفق لها تصفيقا صاخبا حتى ان التصفيق غطى على كلمات الحوار الذى دار بعد ان انتهت ..

وفى الفصل الثانى كان دورها يستغرق خمس دقائق والجمهور متعلق بها وبكل كلمة تنطقها ، ثم انهال التصفيق اكثر عما كان خلال الفصل الاول . بل إن بعض المشاهدين كانوا يقفون على اقدامهم وهم يصيحون .. برافو .. برافو ..

وربما احس المتفرجون بنقص كبير فى الفصل الثالث لإن زينب ظهرت فيه وقد ماتت العجوز وجتتها مدة على المسرح لا تتحرك ولا تتكلم ..

ولم يعلق لها وجدى بكلمة واحدة عن النجاح الذى حققته بدورها الصغير .. ولكنه إبتعد عنها كأنه يهرب منها مغتاظا رغم انه كان يلاقى هو الآخر عواصف من التصفيق ..

ولكنها فوجئت فى الليلة التالية بأحد موظفى الفرقة يظهر على المسرح قبل بداية المسرحية ويقول للجمهور .. رجاء عدم التصفيق خلال عرض الفصول حرصا على عدم إزعاج الممثلين اثناء القيام بأدوارهم ..

ورغم ذلك لم يستطع الجمهور ان يخفى إعجابه بها وهى تمثل دورها فى الفصل الثانى فانطلق يصفق ..

وقبل ان تبدأ البروفات فى اليوم التالى فوجئت بالاستاذ وجدى يستدعيها ويقول لها فورا ودون ان ينظر فى وجهها كأنه يهرب من مواجهتها :

- إنى اضطرت إلى إجراء تعديل فى المسرحية .. وقد ألغى دورك فى

الفصل الثانى .. أسف .. وجحظت عينها وبدأت ترتعش وهى تحس أنها تهم بأن تهجم عليه وتقبض على عنقه وتخنقه .. ثم صاحت :

- لن أقوم بهذا الدور لو عدلت منه كلمة واحدة .. وأبحث لنفسك عن ممثلة أخرى .. لن أظهر معك ابدا على مسرح واحد .. انك انانى .. انك تغار منى .. انك تريد أن تقتلنى كممثلة قبل أن أقتلك ..

وجرت من أمامه ..

وعادت الى البيت ..

والقت بنفسها فوق الأريكة تبكى وهى تصرخ بالبكاء كأنها تشيع عزيزا عليها ..

وكلها ترتعش ..

* * *

وقالت زينب لزوجها الدكتور محجوب وهى تضغط على شفيتها بأسنانها فى منتهى التصميم :

- ليس هناك إلا طريق واحد حتى أخدم فنى وأخدم جمهورى وأخدم نفسى .. سأكون أنا صاحبة فرقة مسرحية تحمل اسمى ..

وقال محجوب وهو ينظر إليها فى دهشة :

- كيف تكونين صاحبة فرقة .. إنه مشروع يحتاج إلى رأس مال ضخم :

وقالت بمنتهى الثقة :

- أعرف من سيمول هذا المشروع ..

قال من خلال دهشته :

- من ؟ قالت فى بساطة :

- عبد المنعم مرزوق . . إنه مستعد أن يستجيب لكل ما أحتاج إليه وأطلبه . .

وسكت الدكتور محجوب كأنه أصيب بصدمة . . ثم قال فى صوت خفيض كأنه يصدر قرارا نهائيا :

- إنى غير موافق على أن تكون بينك وبين هذا الشخص أى معاملة . .

وقالت وهى تنظر إليه فى تصميم إلى حد التحدى :

- لماذا . . لقد اتصلت به بالتليفون وبدانا نتحدث فى المشروع . .

وقال فى هدوء لايحول دون رعشة جفنيه :

- لقد سبق أن اتصلنا به نحن الاثنين . . ودعواناه الى البيت على اعتبار أنه من أنصار الفن . . ففك . . وكان يأتى وهو يحمل لنا هدايا كثيرة ويقضى الوقت وهو يتحدث عن مشروعات فنية يقوم بها لك . . ولكن بعد مدة قررنا نحن الاثنان مقاطعته ، أو لعله هو الذى سحب نفسه من أمامنا ومن صداقتنا . . لأنه يش من الوصول إلى مايريد . . إنه لايريد الفن ، ولكنه يريد من تعجبه من الفنانات . . وهو لايهمه أن يتفرج على ممثله وهى تمثل على المسرح أو على الشاشة . . ولكن كل مايهمه أن يتفرج عليها وهى على فراش بين احضانها . .

وصاحت مقاطعة :

- لاتقل كلام الشوارع . . إن تاريخ المسرح كله مزدهم بحكايات

عن ممثلات شهيرات كن يعتمدن على رجال اغنياء فى تمويل مشروعاتهن ، فقيل عنهن إنهن كن يعطين اجسادهن لهؤلاء الرجال نظير التمويل . . ولكن مايقال عن تشنيعات وإتهامات ليس لها مابيتها . . وكل مايدور فى خيالك يعتمد على طبيعة المرأة . . وانت تعلم أن ليس من طبيعتى أن استسلم لرجل مهما كنت فى حاجة إليه . . حتى لو حاول . . قلنتركه يحاول ونحن متأكدون أنه لن يصل إلى شيء . . لأننا الاقوى . .

وقال بصوته الخفيض :

- أن هناك نوعا من اصحاب الملايين . . نوع معين من التجار أو المقاولين أو من رجال الاعمال كما يسمون انفسهم . . نوع أصبح منتشرا فى مصر كما هو منتشر فى دول البترول . . هذا النوع مصاب بعقدة اذلال المستحيل لتحقيق متعة الزهو بنفسه . . فيجرب وراء النساء المشهورات خصوصا الفنانات ، وينزف عليهن من ملايين حتى يأخذهن الى فراشه . . ثم يتفاخر فى جلساته الخاصة مع أصدقائه بأن يروى الحكاية . . وهذا الرجل الذى كنا نعرفه هو من هذا النوع من أصحاب الملايين . . ولعلك تذكرين أنه روى لنا يوما حكاية عما كان بينه وبين الفنانة المرحومة عطيات . . ولن أطبق أن يبدأ فى رواية حكاية له مع زوجتى . . حتى لو كانت حكاية كاذبة . . إنى لن أسمع لك بمجرد لقائه . . بل أصمم على أن تقطعى أى تعامل معه حتى حديث التليفونات . .

وقالت فى حدة كأنها تعلن الثورة :

- ولكنى مصممة . . وسأحدد له موعد لقاء . . إن كل خيالى هى فنى . . وهى إنى ممثلة . . وإلا لم تعد لى حياة . .

وقال وهو لايزال هادئا :

- إذن . . سأتركك وحدك . .

وقالت صارخة كأنها أعلنت الثورة :

- ماذا تعنى .. هل تطلقنى ؟

وقال وهو يقوم واقفا :

- لا لن اطلقك إلا إذا طلبت انت الطلاق .. ولكنى سأترك لك البيت .. فقد كنت أعيش فيه مع ممثلة يحترمها ويحبها الناس .. ولن أستطيع أن أعيش مع ممثلة تفقد احترام الناس ..

وقالت وهى تدق الأرض بقدمها :

- افعل ماشرت .. إنى مصممة ..

وبدا الدكتور محجوب يجمع بعض ملابسه فى حقيبة صغيرة ، ثم خرج إلى بيت أمه .. وهى واقفة أمامه مصلوبة ينتفض كل ما فيها من الغيظ دون أن تنطق بكلمة .. ولم تسقط بعد أن خرج وتبكى كعادتها كلما واجهت مشكلة .. ولكنها ظلت واقفة مصلوبة كأنها تقاوم شيئا فى داخلها .. إلى أن استطاعت أن ترسم ابتسامة بين شففتها .. ثم تحركت ناحية التليفون ورفعت السماعة وأدارت رقم المليونير عبد المنعم مرزوق ..

* * *

وكان قد مضى شهر دون أن يلتقيا .. بل دون أن يسأل أحدهما عن الآخر ولو بالتليفون .. إلى أن فوجئ بها يوما تاتى إليه فى بيت أمه .. وهى تبدو ضعيفة منهارة .. واستقبلها قائلا فى دهشة المفاجأة :

- هل تريدان الطلاق ..

وقالت فى صوت كأنه صوت بكاء :

- لا .. جئت لأعود بك الى البيت .. بيتنا ..

قال فى فرحة :

- هل عدلت عن تصميمك ..

قالت وهى تخفض جفניה حتى لا يرى عينيهما :

- كنت أعلم أنى لا أستطيع الحياة بعيدا عنك .. كل حياتى كانت معك .. ولكنى كنت أحاول أن أحقق المشروع أولا ثم أعود إليك به بعد أن تتأكد أنى لم أستسلم لما يمسنى ويمسك .. ولعل هذا الرجل الآخر كان يعلم ما فى نيتى .. وكان أشطر منى .. فاشتراط أن يصل هو إلى ما يريد قبل أن يحقق لى ما أريد .. لقد كنت على حق فى كل ما قلته عنه .. وقد عدت إليك دون أن أحقق أى مشروع .. وأنا أسفة ..

واحتضنها بين ذراعيه وانهاى عليها بقبلاته إلى أن أعطته شففتها كأنها تستريح وتنام بين شففتيه ..

وجلسا إلى أن هدأت وقال لها كأنه يحيى فيها الأمل :

- إنك ستبقيين ممثلة .. وستكونين أعظم ممثلة فى العالم كله .. ولكنك لن تعودى وتمثلى مع فرقة يملكها ويسيطر عليها ممثل أو ممثلة أخرى .. إن الممثل عندما يكون فرقة فهو يكونها لنفسه وحده .. ويصمم على أن يكون الاسم الوحيد فيها .. والبال الوحيد فى كل مسرحياته .. هكذا كان المرحوم يوسف وهبى مع فرقته .. وهكذا كانت فاطمة رشدى عندما كونت فرقتها .. وهكذا كان يمكن أن تكونى أنت لو استطعت تكوين فرقة .. ولكن الفرق المسرحية التى يمكن أن تقسح لك مجال الفن حتى آخره هى الفرق التى يملكها مختصون ليسوا ممثلين ولا حتى مؤلفين .. إنما يؤسسونها ويكونوا تجارا للفن ، والتاجر كل ما يهيمه هو تحقيق الربح .. وأنت تحقيقين ربحا لكل من تعملين معه .. وفى مصر الآن كثير من الفرق التمثيلية يملكها ويسيطر عليها متعهدو الفن .. وقد حققت النجاح الصاحب لكثير من الممثلات والممثلين .. ولو كانت الفرقة التى تقدم

مسرحية « ربا وسكينة » يملكها ممثل يقوم بدور في المسرحية . . لما استمرت ربا وسكينة . . ولكانت شادية وسهير البابل قد هربتا من هذا الممثل الذى يستطيع ان يفرض نفسه عليهما كصاحب فرقة . . فحاولى ان تقدمى نفسك فى احدى هذه الفرق . .

وقالت وهى تحتضنه وتقبله بابتسامتها . .

- لماذا لم تقل لى كل هذا الكلام قبل ان اعرض نفسى للفشل . .

وقال فى لهجة الطبيب الأستاذ فى علم الطب :

- اردتك ان تجربى الطريق الآخر حتى تقتنعى بهذا الطريق . .

قالت وهى تهم بالوقوف على قدميها :

- دعنا نعود الى بيتنا .

وقال وهو يشدها بجانبه :

- انك متعبة . . واخشى ان اتركك وحدك عندما اذهب الى عمل . .
فلنبق مع امى اياما الى ان تستردى كل ما فقدته . .

وقالت من خلال ابتسامتها السعيدة :

- حاضر . .



الطريق الأقرب ..

كان حسام زهران أو حسام بيه كما يعرفه الناس من أعجب شخصيات المجتمع الراقى . . مجتمع أولاد الذوات ورجال الأعمال . . وكان أعجب ما فيه انه لم يتزوج حتى اليوم رغم انه جاوز الخامسة والأربعين من عمره . . ولم يكن ينقصه شيء حتى يتزوج . . بل انه يعتبر حلما بالنسبة لكل النساء والبنات . . وكلهن يندفعن وراءه . . وكل منهن تضع له خطة لعلها تجره الى الزواج بها . . فهو وسيم يبلغ الحد الأقصى من الوسامة . . وهو رشيق طويل القامة الرفيعة . . ليس أطول ولا أرفع مما تتطلبه الرشاقة . . منتهى الرشاقة . . وهو أنيق يختار البديل والقمصان والكرفطات والأحذية كأنه جمع حوله كل مصممى أناقة الرجال ليعرضوا عليه أرقى وأجمل ما وصلوا إليه . . ولم يكن وسيما ورشيقا وانيقا قحسب ولكنه كان فى منتهى الثراء . . ورث عن والده مصانع الألومنيوم بجانب مزارع للفاكهة وعمارات وفيلات . . ولكنه لم يكتف بالأثر بل تفرع سنوات طويلة للعلم حتى حصل من أمريكا على دكتوراه فى علم إدارة الأعمال . . وإن كان لم يعود الناس على أن ينادونه بلقب دكتور . . إنه يكره أن يعرف بهذا اللقب ربما لانه يفضل ان يبدو بين الناس بسيطا عاديا دون أن يتباهى بوسامته أو بثرائه أو بـ « شهادة الدكتوراه التى يحملها » . .

وهو لم يتزوج حتى اليوم . .

اخوه الأصغر تزوج . . وأخته الأكبر تزوجت . . وهو لم يتزوج . .

وقد احاطته ولحقته به كثير من القصص تحاول أن تثير عدم

زواجه . .

قيل عنه أنه ضحية قصة حب وحيدة . . فقد أحب فتاة أمريكية عندما كان يدرس هناك . . وقد خانته مع رجل آخر فكفربكل بنات العالم . . وأصر على التدخل بحياته أى أنثى . . وتوضع لهذه القصة نهايات أخرى . . فيقال أن الفتاة الأمريكية كانت ابنة عائلة كندية . . وأنها رفضت أن تتزوج من مصرى غريب رغم أنها أحبته حرصا على عدم المساس بمركز أبيها الاجتماعي وهو مرشح لانتخابات الرئاسة . . وقيل أن حسام بيه هو الذى رفض أن يتزوجها لأنه كبير عائلته في مصر ولا يريد أن يشوه تقاليد العائلة . . رغم أنه لم يحب بعدها ولا يزال يسافر كل عام الى أمريكا ليلتقط نظرة اليها ولو كانت من بعيد . .

وقيل أكثر من ذلك . . قيل عنه أنه عنيّن اصابه الله بعدم القدرة على التعامل مع الجنس الآخر . . إنه محروم جنسيا . . وإن كان المقربون اليه يعلمون انه ليس محروما . . وأن له مغامرات هادئة ولقاءات خفية مع نساء في البيت الذى يملكه بين مزارع الفاكهة . . وإن كان لم يصل أى لقاء الى قصة حب . . ولا الى مجرد فكرة زواج . .

وقيل عنه انه يحب امه الى درجة العبادة . . ودفعه الحب الى أن يكون لها وحدها ولا يجمع بينها وبين زوجة تتجرا وتحاول أن تضع نفسها في بيته أو في قلبه في مستوى امه . . وهو يعيش مع أمه وحدها بعد أن مات أبوه وتزوج أخوه وأخته وأصبح لكل منهما بيت . . وهو يعيش معها كأنه ليس مجرد ابن بل كأنها كل حياته . . حتى أنه يربط يومه بيومها . . وساعته بساعتها . . فلا يخرج إلا في الموعد الذى تعرفه أمه ويعود في الساعة التى تنتظرها فيها أمه . . ولا يتأخر عنها لحظة خوفا عليها من القلق . . وقد يلح عليه أصدقائه بالبقاء في جلستهم فيقول ببساطة .

- لم أستاذن أمى . .

وقد يضطره عمله إلى التأخر عن موعد عودته إلى أمه فلا يستسلم لعمله إلا بعد أن يحدثها في التليفون ليبلغها أو على الاصح ليستأذنها . .

وارتباطه بأمه كل هذا الارتباط هو ما جعل كل أيامه منظمة تنظيما دقيق . . كأنها دقائق ساعة . . فكل من يعرفه يعرف متى سيراه ومتى سيبتعد . . ومتى سيكون متفرغا للعمل ومتى يكون في راحة . . ومتى يكون جادا ومتى سيضحك . . حتى سهراته ومغامراته الهادئة منظمة على مواعيد ثابتة . . كأنه يحمل في جيبه نتيجة مفهوسة لاتحدد له الأيام وتاريخ كل يوم من الشهر ومن السنة ، ولكنها تحدد له تحركاته في كل ساعة من ساعات اليوم . . كان روتينيا ولكن هذا الروتين كان يشمل الساعات التى يعطى لنفسه فيها ساعات من الحرية تحقق له سعادته الشخصية وتعطيه كل احتياجاته . .

وحسام بيه يسألونه دائما :

- لماذا لا تتزوج ؟

والى العادة يرد ضاحكا بنكتة يطلقها على نفسه . . ولكنه عندما يرد جادا يقول :

- ان الزواج ليس مجرد نظام للجمع بين رجل وامرأة مفروض على كل الرجال والنساء . . إنه إحتياج . . وأنا لست في إحتياج إلى الزواج . .

ولكن إصرار حسام بيه على عدم الزواج لم يكن وحده أعجب مافيه . .

الأعجب هو هوايته الغريبة في اختيار اعداد الاطعمة التى يأكلها . . وهى هواية يبدو بها أحيانا كأنه وضع حيلته كلها في الطبق الذى يأكل منه . . وتجده وهو يأكل يمصص شفثيه ويطلق كلمات الغزل فيما يتذوقه . . الله الله . . ياسلام ياسلام . . ايه الجمال ده كله . . ايه المتعة دى كلها . . ذوقوا ياناس واحمدوا الله وهو يمتعنا بخيراته . . ورغم أنه

يبدو كأنه ينسى نفسه وهو يأكل . . يبدو كمذموم متفرغا باداماته كحشاش ينسى نفسه وهو يشد أنفاس الحشيش . . إلا أنه لا يبدو شرها وهو يأكل . . ولا يبالغ في الكميات التي يلقي بها في فمه بدليل احتفاظه برشاقة قوامه . . أو لعله يتميز كما يتميز كثيرون بالقدرة على هضم ما يأكله دون أن يترك منه دهونا تتعلق بخلايا الجسد وتسبب السممة والانتفاخ . . أن كثيرين من أصحاب القامة الرشيقة يأكلون أضعاف أضعاف ما يأكله المنتفخون بالسممة ورغم ذلك لا يتأثر قوامهم . . وكانهم لم يأكلوا شيئا . . ويقال عنهم أن أجسادهم تسرق الطعام وتخفيه في عروقهم فلا يبدو عليهم أنهم أكلوا شيئا . . ولكن المعروف عن حسام بيه أنه يحرك أسنانه ببطء شديد وهو يعضغ ما يأكله . . كأنه يريد أن يحتفظ بمتعة مذاق الطعام داخل فمه أطول مدة ممكنة قبل أن يصل به الى معدته . . مرددا كلمات الغزل فيما يتذوقه . .

وقد عرفت أصناف المأكولات التي يدمنها حسام بيه . . وهي أكثر من صنف . . ولكن كل صنف له موسمه الذي يتفرغ له فيه ولا يخونه أبدا مع أى صنف آخر . . انه مخلص لكل صنف اخلاص الحب . . وقد وضع لنفسه نظاما لتناول الطعام حتى يحمي نفسه من أن يضطر الى خيانة الصنف الذي يدمنه . . فهو يتناول افطارا سريعا خفيفا لا يحوى أكثر من كوب شاي وقطعة من البسكويت مزودة بالجبن الأبيض . . وفي الساعة الثانية عشرة ظهرا وهو في عمله يتناول كوبا آخر من الشاي مع قطعة أخرى من البسكويت والجبن الأبيض . . اما المائدة الذاكرة بالطعام الذي يدمنه فيجلس إليها في الساعة السابعة مساء بعد أن يكون قد انتهى من عمله . . ويجلس إليها طويلا كأنه في لقاء حب . . لذلك فهو يعتذر دائما عن كل الدعوات الى تناول العشاء . . وقد يقبل دعوة حتى يجتمع بالاصداق ولكنه لا يأكل شيئا مما يقدم اليه . . فهو يكون قد انتهى من تناول أكلته . . أو قد يحمل معه الى الدعوة صنف الطعام الذي يدمنه ويشرك معه فيه الداعين والاصداق . . وإذا أقام هو دعوة للعشاء فدعوته تحمل توقيعيا عجيبا لموعد العشاء . . الساعة السابعة مساء . . وقد يتساهل أحيانا فيجعل العشاء في

الساعة الثامنة . . واصداقاؤه يقبلون على دعواته مرحبين فرحين فان ما يقدمه لهم من الأصناف التي يدمنها يعتبر فعلا أشهى ما يمكن أن يتذوقوه . .

وليس معنى ذلك أن حسام بيه كان يدخل المطبخ بنفسه ليعد صنف الطعام الذي يدمنه . . لأمجال أمامه لدخول المطبخ وعمله لا يتيح له الساعات الطويلة التي يحتاج إليها إعداد الطعام . . ولكنه كان يدرس فن اعداد هذا الصنف من الطعام دراسة كاملة . . بكل تفاصيله وكل أنواعه . . ويلقن الطباخ مائدرس . . وهو طباخ قديم في خدمة العائلة وتعود على مزاج ومذاق حسام حتى أصبح يستطيع دائما أن يرضيه ويحقق ما يريد . . وفي نفس الوقت كان حسام يلقي أمه ما درسه ويعتد عليها في الاشراف على الطباخ . . وأمه لم تعد تعيش الا لاسعاد حسام وارضائه . . وهي تعلم أن قمة ارضائه هي أن توفر له هذا الصنف من الطعام الذي يدمنه . .

وكان أشهر ما عرف من أصناف الطعام التي يدمنها حسام هو ادمانه لاكل طبق طيور السمان . . السمان المشوى مع الأرز الدمياطى . . والسمان المقلى . . وما يحيط بأكله السمان من مقدمات ومشهيات . . وموسم السمان ووصوله إلى سماء مصر ثم الى مائدة حسام يبدأ في شهر سبتمبر ولا يستمر الا ثلاثة شهور . . أى يهجر السمان سماء مصر في أوائل ديسمبر . . ولكن حسام كان قد تعود أن يجمع من طيور السمان ويخزنها في تلاجيات خاصة بحيث يتمتع بادامانه ستة شهور على الأقل من العام . . وعندما يجد حسام بيه أنه أصبح محروما من السمان ولم يعد لديه منه شيئا تنتابه نوبة من الحسرة ويضع في حسرته كأن جبينه قد هجرته . . ثم لا يلبث أن يغرق في ادمانه الثاني . ادمان أكله الجمبرى بكل اصنافه . . الجمبرى الصغير داخل طبق الارز بالكارى . . والجمبرى الكبير المشوى . . أو مخلوط «بانيه» . . أو جمبرى مسلوق على البخار لا على النار بالبصل . . ويعيش متمتعا بادامانه لكل اصناف الجمبرى . . وإن كان

أحيانا يجمع بين الجمبرى وسمك لانخوست فكلهما ينتميان الى فصيلة واحدة من أهل البحر ..

ولكن كان يظهر عليه أحيانا ادمان اخر يعتبر غريبا بالنسبة للطبقة الراقية .. فقد كان يدمن ايضا أكل الكوارع .. واستكمل كل الدراسات عن خصائص الكوارع التي يمكن ان يلقيها للطباخ حتى تصل اليه وهي في منتهى روعتها ومتعة استطاعها .. الكوارع البتلو .. وهي أخف أنواع الكوارع من ناحية الطعم وأقدها على اعداد أطباق الحساء الممتعة .. والكوارع الكندوز .. انها أصلح أنواع الكوارع التي تقدم مع أطباق الفتة بالأرز والخبز .. والكوارع الضانى التي تخبى من عظامها وتقدم على قمة أطباق ورق العنب المحشو بالأرز وجبات اللحم المفروم .. كأنها تاج يفتح الشهية لأرقى درجات متعة المذاق .. وهو يعلم طبعاً ان إعداد الكوارع يتطلب ان يبقى على النار ثلاث ساعات على الأقل حتى تلين وتتجاوب مع أسنان الأكلة .. ثم ان على الطباخ ان يعتمد ازالة البقع السوداء من فوق لحم الكوارع حتى تصبح بيضاء صافية في لون الورد الأبيض الذى يبارك الحب .. حب الكوارع ..

وهكذا كان حسام بيه زهران ..

* * *

وجاءت أيام بدأ فيها من يعرفون حسام بيه يلاحظون تغييرا كبيرا في روتين حياته .. ان الساعات المحددة بالنسبة لعمله .. وبالنسبة للقاء أصدقاء ومعارفه .. بدأت تختل .. بل عرف انه ليس دائما في بيته في الساعة السابعة مساء ليتناول وجبته الرئيسية يلتقى بأدائه سواء لقاء السمان أو الجمبرى أو الكوارع ..

الى ان بدأ الناس يتحدثون عنه وعن السيدة هدى المرجوشى ..

وهدى كانت دائما في حياة حسام .. فالعائلتان متقاربتان .. وأم

هدى تعتبر دائما الصديقة الأولى لأمه وهما مرتبطتان احدهما بالآخرى كأنهما أختان .. حتى ان حسام منذ صغرة كان يعتبر أم هدى كأنها خالته ويناديه « طنط .. كما كانت هدى تنادى أمه طنط » وتعتبرها ايضا كأنها خالته .. وكانت هدى معروفة منذ صغرها بأنها ست بيت ممتازة وأنها تهوى الطبخ .. وهو ماكان يغفر لها حتى اقبالها على التعليم وفورها من المدارس ورسوبها المتتالى فى الامتحانات الدراسية .. وقد تزوجت هدى وهى فى العشرين من عمرها وهاجرت مع زوجها الى امريكا حيث استقرا هناك .. ولكن ظل معروفا عن هدى احتفاظها بطابع البيت المصرى والمطبخ المصرى حتى فى امريكا .. وكانت كل خطاباتها الى أمها تتعلق بشئون البيت والمطبخ .. وأما ترسل اليها دائما كل مايجد من هذه الشؤون .. وكانت هدى تأتى لزيارة أمها كل عامين لتقضى معها شهرا .. وأما تذهب اليها ايضا لتقضى معها شهرا .. أى ان الرباط العائلى مستمر بما فيه الارتباط بعائلة حسام .. الى أن مرحوالى خمسة عشر عاما وتوفى زوج هدى فى حادث .. وعادت الى مصر دون ان تقرر الاستمرار فيها فقد كانت قد اكتسبت الجنسية الأمريكية واقامت حياة كاملة هناك ..

ودعاها حسام الى تناول وجبته معه .. وهى تعرف كل شئ عن حسام .. تعلم انه يتناول وجبته الرئيسية فى الساعة السابعة مساء .. وليس هذا غريبا .. ففى امريكا ايضا يتناولون الوجبة الرئيسية فى مثل هذه الساعة بعد الانتهاء من العمل .. وتعلم ايضا ادمانه لانواع معينة من الطعام .. وقد وجدت نفسها تعتمد اجادة طهو هذه الانواع .. السمان والجمبرى والكوارع .. وأن بينها وبين حسام دائما ومنذ كان فى صباهما نوع من التقارب العاطفى المريح .. كأنهما أخوة .. أو كأنهما فى منتهى الصداقة .. وكان كل منهما يحس بمنتهى الراحة مع الآخر .. وتمتد جلساتهما بين ضحكات ومشادات وحكايات على طول ما يستطيع كل منهما مع الآخر .. وربما خطر على بال كل منهما ان يطور هذا التقارب الى حياة كاملة .. ولكن الحياة سارت بهما قبل ان يجمعهما أى تطور .. هدى

تزوجت من آخر رغم ما كانت تحلم به . . وقبل أن تخطر فكرة الزواج على
بال حسام . . وهى لاتخطر على باله حتى اليوم . .

ورغم أن موسم السمان كان قد انتهى إلا أن حسام قدم لها وجبة
كاملة من الذى يختزنه . . وهو يتغزل فى كل قطعة يقطعها . . ويروى
حكايات طويلة عن السمان كأنه يروى حكاية حبه . . وهدى تتحداه وتروى
هى الأخرى حكايات عن أكلة السمان لتثبت له أنها تعرف عن حبيبته أكثر
منه . .

وبعد أن طالت السهرة قالت له :

- غدا سأقدم أنا وجبة العشاء . . عندنا فى البيت . .

قال ضاحكا :

- ماذا تعدين لى ؟

قالت فى إصرار :

- لن أقول لك . .

قال كأنه يتباهى بحبه :

- طبعاً ليس عندكم سمان . . لذلك سأحمل لك طبق سمان من
عندى . .

وصرخت :

- لا . . أنت حر فيما تحبه وأنا حرة فيما احبه ولن تستطيع أن
تفرض على حبك . . ولوجئت معك باى مما يؤكل فلن أضعه أمامك على
المائدة حتى لو أصررت على ألا تأكل . .

واستسلم حسام وهو يضحك كأنه مقبل على مشادة جديدة بينه وبين
هدى . .

وعندما ذهب إليها فى اليوم التالى فى الساعة السابعة وجلس على
مائدتها وبدأ تقديم الطعام فوجئ بأنها تبدأ بتقديم ثمرة خرشوف كاملة
مسلوقة . . إنه طبعاً يعرف الخرشوف ولكن لم يخطر على باله أبداً أن
يأكله . . وقال فى عجب :

- ما هذا . .

قالت وهى تشد ورقة من ثمرة الخرشوف وتشد طرفها بأسنانها :

- خرشوف . .

وكأنه أراد أن يبدأ بمسايرتها فمد أصابعه وشد ورقة خرشوف هو
الأخر وشد فيها بأسنانه . . ثم أخذ برفة طويلة وهو يستطعم مذاقها . . ثم
شد ورقة أخرى . . وأخرى . . الى أن أتى على كل الأوراق واكل أيضاً قلب
الخرشوفة الذى يحمل الأوراق . . وهو لا يزال يستطعم المذاق كأنه يقوم
بتحليل كيميائى داخل فمه . . وهدى تتبعه بعينها دون أن تعلق بشيء وأن
كانت الابتسامة لاتفارق شفتيها . .

ثم جاء الى المائدة الطبق الثانى . . وهو أيضاً خرشوف محشو باللحم
المفروم « المعصج » ومعه حبات من الصنوبر ومحاط بالصلصة البيضاء
والجزر . . وأخذ حسام مدة أطول فى تذوق هذا الطبق ودراسته . :

وجاء الطبق الثالث . . إنه أيضاً « دقية » من الخرشوف المسلوق
بالزيت وسط حبات من الفول الحراتى و« الشبت » وقطع الليمون . . وهو
طبق يقدم بارداً . . كأنه طبق الحلو الذى يقدم بعد العشاء . . واستغرق
حسام مدة طويلة فى تذوق هذا الطبق . . ثم قال بعد أن انتهى منه

- ساتناول عشائى غدا معك ايضا ..

وقالت هدى فى فرح :

- ماذا تريد أن أعد لك ..

وقال قورا :

- خرشوف طبعاً . . انى مازلت مترددا فى الحكم على مذاقة وفى تأثير

هذا المذاق على . .

وقضى السهرة معها . . وهو تمر به فترات يصمت فيها ويسرح بخیاله
كأنه يستعيد ذكرى مذاق الخرشوف حتى يتخذ قرارا بالنسبة له . .

وتناول الخرشوف فى اليوم التالى :

ووجد نفسه يعترف بأنه وقع فى إدمان جديد . . إدمان الخرشوف . .

وقال لهدى :

- أريد أن أعرف كل التفاصيل عن اعداد الخرشوف وطهوه حتى
القنها لطباخى ويقدمه لى كل يوم فقد وقعت فى هواه . .

وقالت هدى ضاحكة :

- لن يستطيع أن يعد لك المذاق الذى أعده أنا لك . .

وقال محتجا :

- لماذا . . هل تلجئین الى السحر وأنت فى المطبخ ؟

وقالت كأنها تشفق عليه :

- لا . . ولكن الحكمة الشعبية تقول « أن الطبخ بالنفس » . . أى أن
طهو الطعام يتم بأنفاس الطاهى . . ويختلف مذاق الصنف الواحد مما
يطهى باختلاف انفاس الطهاة . . أن مجرد اختلاف حركات أصابع الطاهى
يختلف معها مذاق الطعام . . ومايمكن أن يعده لك طاهيك من الخرشوف
لايمكن أن يكون فى مذاق ماأعده لك . .

وصاح كأنه يدافع عن نفسه :

- أن طبأخى الأسطى محمود هو عبقرى الطهاة فى مصر كلها . . وقد
أوقعنى فى حب السمان والجمبرى والكوارع فلماذا لايجمى حبى الجديد
للخرشوف . .

وقال فى هدوء المشفق :

- إن الاسطى محمود كان أول من أعد وقدم لك . . وأنت تحب
سمان الاسطى محمود وجمبرى الاسطى محمود وكوارع الاسطى
محمود . . ولكنك احببت خرشوف هدى . .

ورغم ذلك أصدر حسام أوامره الى الاسطى محمود بأن يعد له أطباق
الخرشوف بعد أن ضغط على هدى حتى كشفت له عن كل اسرار
الاعداد . . وهو نفسه قام بدراسات خاصة حول الخرشوف . . ووجد
الاسطى محمود نفسه على علم تام بالخرشوف . . انه طعام منتشر معروف
وأعداده سهل . .

ولكنه عندما أكل خرشوف الاسطى محمود وجد فرقا كبيرا فى مذاقه
عن خرشوف هدى . . رغم أن طبق الخرشوف نفسه لاينقصه شىء فى
اعداده يستطيع أن يلوم عليه الاسطى محمود . . ربما كانت الحكمة
الشعبية صحيحة . . « أن طهو الطعام يستمد مذاقه من أنفاس
الطاهى » . .

ولا يدري أحد ما إذا كانت هدى قد اغرت حسام بطبق الخرشوف
حتى يتزوجها . . أم أن كل ما حدث كان صدفة . . على كل حال فإن هدى
مقتنعة دائما بالحكمة الشعبية التي تقول « إن أقرب طريق إلى إقناع عقل
الرجل وقلبه هو الطريق إلى معدته . . الطريق إلى بطنه » . .



وأصبح يقضى أيامه بين السمان أو الجمبرى أو الكوار ثم يلج عليه
ادمانه بحاجته الى الخرشوف فيهرع الى هدى ويتناول عندها أطباق
الخرشوف . .

ومرت اسابيع الى أن أصبحت هدى مضطربة الى العودة الى
أمريكا . .

وبدا حسام يحاول أن يشبع ادمانه بخرشوف الأسطى محمود . .
ولكنه مستحيل . . وحاول أن يتخلص نهائيا من ادمان الخرشوف . . ولكن
مستحيل أيضا . .

وبدأت الفكرة تخطر على باله لأول مرة . . لماذا لا يتزوج هدى . .
وحاول اقناع نفسه بأنه لا يتزوجها من أجل الخرشوف . . إنها عاشت معه
في كل حياته . . وهي المرأة الوحيدة الذى يجمعه بها كل هذا التقارب . . ثم
إنها الوحيدة التى تتمنى أمه وتفرح بأن تعيش معها . .

وسافر الى أمريكا . . وعرض على هدى الزواج . . وفرحت هدى فرحة
صارخة . . أنها أمنية عمرها منذ كانت صبية . . وستصفى كل مآلها في
أمريكا وتعود الى مصر وتعيش مع حسام . . وقال وهو يحتضنها كأنه
يعرف لها :

- لقد كنت متزوجا من ثلاثة . . السمان والجمبرى والكوار . .
وسأتزوج الرابعة . . سأتزوج الخرشوف . .

وقالت ضاحكة :

- وسأحتفظ لك بزوجاتك الأربع . . وإن كانت الزوجة الرابعة
ستكون دائما الأحب . .

وكأنه مات ..

إنه منذ تزوج وأصبح له بيت وهو يعتبر نفسه غير مسئول عن إدارة شئون هذا البيت .. إنه متفرغ كل التفرغ لشئون عمله .. وما يدره عليه عمله من كسب مالى يضعه كله في يد زوجته بعد أن يحتفظ لنفسه بما يقدر انه يكفى تكاليف حياته خارج البيت .. فزوجته هى المسئولة عن إدارة شئون البيت بما فيها شئون الأولاد .. ورغم أن دخله الذى يدره عمله قد ارتفع كثيرا ، وأصبح يعتبر من الأغنياء .. إلا انه لم يكن يهتم بمعرفة كم أصبح يكسب .. وكما يندخر فى البنك .. فكل ذلك من اختصاص زوجته .. وهى حرة فى تصرفاتها .. وليس معنى ذلك انها تخفى عنه شيئا .. إنها تحدثه دائما فى جلساتها التى تعودوا عليها قبل تناول طعام العشاء عن كل تصرفاتها خلال اليوم .. وعن كل قرش صرفته أو ادخرته أو دفعته لمصلحة الضرائب .. فهى المسئولة أيضا عن محاسبة مصلحة الضرائب .. ولكنه لا يهتم بمراجعة مآخذته عنه أو مجرد فهمه .. فهو مطمئن اليها كل الاطمئنان .. ويعتبر هذا الاطمئنان هو الذى يوفر له تفرغه لعمله ونجاحه فيه ..

لقد كان يعيش فى البيت كمتفرج .. وزوجته قادرة دائما على أن تسعده بما يتفرج عليه .. حتى أصناف الطعام لم يكن يختار منها شيئا أو يوصى بشيء .. انه يحس بأنه يتفرج على كل ما يقدم اليه ثم يسعد بتذوقه .. وقد كانت زوجته كأنها تعيش فى بطنه وتعرف أسرارها فلا تقدم اليه الا ما يثير شهيته ويحقق متعته بما يأكل ..

الى هذا الحد كان سعيدا باستسلامه لزوجته .. انها ست بيت ممتازة وزوجة ممتازة وأم ممتازة ..

ولكنه كان يهب عليه إحساس بمسئوليته عن البيت والعائلة فى لحظات طارئة عندما تشكو إليه زوجته .. وكان يفاجأ بأى شكوى كان ليس من حقها أن تشكوه .. فهى المسئولة وهو مجرد متفرج .. ولكن زوجته كانت تفيض بشكواها وتستمر فى ترديدها كأنها تصرخ وتبكي وتستغيث به حتى يخرج من طبيعته كمتفرج ويحس بمسئوليته .. ولكنه إحساس لا يخرج عن تهدئة زوجته بتدليلها والتحايل عليها حتى تهدأ ..

وكانت زوجته لاتعلن شكواها أبدا إلا من الشغالات اللاتى يخدمن فى البيت .. وعلى الأخص المتخصصةات فى خدمة الأبناء .. إنها تكاد تجن .. فلم يحدث أن استقرت شغالة فى البيت .. من تعجبها وتريحها تهرب من البيت لتعمل خارج مصر أو فى بيت آخر يدفع لها أكثر .. ومن لاتعجبها ولاتريحها تطردها .. ولم يستقر فى البيت الا شغال نوبى .. عثمان .. وقد مضى عليه فى خدمتهم أكثر من عشر سنوات حتى أصبح كأنه فرد من أفراد العائلة .. وربما كان سر بقائه انه يعتبر فى تصرفاته وتحركاته كأنه شخصية شاذة .. وربما كان من شذوذه انه لم يتزوج رغم انه وصل الى الأربعين من عمره .. ولا يفكر فى الزواج .. ويعيش كأن كل حياته فى هذا البيت الذى يخدم فيه .. والزوجة لاتعانى من شذوذ عثمان فهى صاحبة موهبة فى التعامل مع الشاذين .. انه هو نفسه .. زوجها .. يعتبر شاذا بين الأزواج .. ولكن خدمة البيت لايمكن أن تكتفى بعثمان وحده .. انه بيت كبير وقد أصبح الأبناء ثلاثة .. والبيت فى حاجة قصوى الى شغالة أو شغالتين تخدمان بجانب عثمان .. وطوال هذه السنوات لم تستقر فى البيت أى شغالة ..

إلى ان عاد يوما إلى البيت وفتح الباب بمفتاحه الخاص وإذا به يفاجأ امامه بفتاة غريبة .. ووقف ييحلل فى وجهها متعجبا .. لايمكن أن تكون هذه الفتاة من مصر .. فعيناهما ضيقتان مشدودتان .. وانفها افطس .. وشفتاهما تغطيان فما واسعاً جداً .. وقامتها قصيرة .. ولون بشرتها اسمر مشوب بالاصفرار .. وهى واقفة امامة صامتة لا يتحرك فيها شيء ولا حتى

ابتنسامة كأنها قطعة من الحجر . . وهرب من امامها دون أن ينطق بكلمة
وجرى الى زوجته يسألها في لهفة :

- من هذه ؟

وقالت زوجته في فرحة كأنها تزغرد :

- إنها الخادمة الجديدة . . إنها من الفلبين . .

ثم انطلقت الزوجة ترى في تباه كيف استطاعت أن تحصل على خادمة
من الفلبين . . فإن ابن عم صديقتها كوثر يعمل هناك وقد أصبح من بين
أعماله تصدير الفتيات الفلبينيات الى مصر ليعملن خادما لدى العائلات
المقتدرة . . وقد استطاعت أن تتفق معه على تصدير هذه الخادمة . .
ومرتبها مائة وخمسون دولارا في الشهر . . تضعها لها في البنك . . بجانب
ثمن تذكرة الطائرة التي حملتها الى القاهرة . . وتعهدا بأن تدفع لها ثمن
تذكرة العودة الى بلادها سواء في أجازتها او إذا قررت ان تهجر العمل في
مصر . . وبعد ذلك فكل نفقات حياتها الخاصة على حساب العائلة . .

ولم يحاول أن يناقش زوجته في التفاصيل . . كيف استطاعت أن
تتصل بقریب صديقتها الذي يقيم في الفلبين . . وكيف تستطيع أن تدبر
تكاليف هذه الخادمة من ميزانية العائلة . . وكيف تحصل على الدولارات
التي تدفعها لها . . انه من عادته ألا يهتم بالتفاصيل المتعلقة بشئون
البيت . . ولكنه سأل زوجته :

- كيف تتحدثين إليها . . بأي لغة ؟

وقالت في فرحة :

- بالانجليزية . . إنها فتاة مثقفة متعلمة . . بل قالت لي أنها متخرجة
من الجامعة في بلادها . . واعتقد انها من عائلة محترمة . . فاعمل في خدمة

البيوت لايشين أى فتاة فلبينية . . وهن أرقى من بنات تايلاند اللاتي أصبح
بعضهن يعملن أيضا في مصر . . انهن أرقى وأنظف . . فرق كبير بين بنات
الفلبين وبنات تايلاند . . ولذلك فأجورهن وتكاليفهن أعلى . .

وهو يستمع الى كلام زوجته الكثير وهو ساهم . . ويسخر بيته وبين
نفسه من أحوال الدنيا . . ان خدم البيوت من أبناء وبنات مصر يهاجرون
للعمل في الخارج . . وكان الحل الوحيد هو ان تستورد البيوت المصرية
خدما اجانب من الخارج حتى تغطي النقص الذي تعانيه . . ولعلنا لو كنا
ندفع أجر الخدم المصريين بالدولارات . . كما ندفع للخدم الاجانب لما
هاجروا ولما استوردنا . .

وقد أصبحت متعته وهو في البيت أن يجلس متفرجا على هذه الخادمة
الفلبينية . . واسمها فيوليتا . . ويحس بها كأنها قطعة انتيكا أثرية
اشتراها من الخارج ليزينوا بها البيت . . وهى فعلا خادمة رائعة تؤدى كل
مسئولياتها اداء كاملا لا تحتاج فيه الى أى ملاحظة . . وكانت تقوم الى
العمل في الساعة السادسة صباحا وتظل تعمل حتى التاسعة مساء . . وفي
الساعات التي تخلو فيها من العمل تجلس وتكتب خطابات لأهلها . .
خطابات طويلة وكثيرة . . وقد أطل بعينه على بعض هذه الخطابات وهى
تكتبها . . فوجدها تكتب باللغة الانجليزية . . وبخط واضح مذهب يؤكد
انها فعلا مثقفة . . ولكنها دائما صامتة . . لا تبدأ أبدا بحديث . . وتتلقى
ما يوجه اليها من حديث وتجيب بهزات رأسها . . وهو لم يتعود أن يتحدث
الى أحد من الشغالين في البيت . . وإذا أراد شيئا فهو يطلبه أولا من
زوجته . . حتى لو كان يريد مجرد كوب من الماء يشربه . . وزوجته هى التي
تأمر الخدم بمطالبة . . ولكنه كانت تمر عليه لحظات يضطر فيها الى توجيه
كلامه الى الخادم أو الخادمة . . وكان لا يستطيع أن يوجه كلامه الى فيوليتا
الا باللغة الانجليزية . . وقال لزوجته ضاحكا :

- إنى أحس كأنى أصبحت اقيم في فندق . . فانى لم اتعود ان

أحداث الخدم باللغة الانجليزية في بيتي ، ولكنى احادثهم بها في فنادق أوروبا .

والمهم . . ماذا حدث لعثمان عندما وجد بجانبه هذه الفتاة الفلسطينية تشاركه في خدمة العائلة . . وقد استقبلها ساخطا . . يرفض التعامل معها . . وقدرت الزوجة أن عثمان ربما علم بقيمة المرتب الذى تدفعه لفيوليتا . . وهو أكثر من ضعف مرتبه . . والأسرار داخل البيوت لاتبقى اسرار مدة طويلة . . لذلك أسرعت الزوجة ودون أن يطلب منها عثمان شيئا ورفعت مرتبه عشرة جنيهات . . ولكنه لايزال اقل من مرتب فيوليتا . . ولكنه ليس الفارق في المرتب فحسب . . فربما ضاق عثمان بأن فيوليتا لاتعيش كأنها شغالة وفي مستوى مجتمع الشغالات الذى تعود عليه . . فهي تبدو دائما وهي تقوم بعملها في ثياب أنيقة مودرن جاءت بها معها من بلادها . . إنها تبدو من بنات العائلة لا خادمة من خادمتها رغم اختلافها في الشكل . . ثم ان العائلة خصصت لها فراشا كاملا مريحا ودولابا تحتفظ فيه بثيابها ولوازمها في غرفة الأبناء . . كأنها هي أيضا من الأبناء . . في حين ان عثمان ليس له الاغرفة مهمة فوق السطوح . .

واكثر من ذلك . . فقد كانت الزوجة حريصة على أن تظل فيوليتا سجيئة داخل البيت . . فلا تصحبها معها عندما تخرج . . ولاتتركها تخرج مع الاولاد في أيام الاجازات . . ولا أن تذهب لتعود بهم من المدرسة . . فقد كانت الزوجة تخشى أن تعرض عائلة أخرى فيوليتا لتأخذها لخدمتها . . بعد أن انتشرت بين العائلات عمليات « لطش » الخادومات الاجنبيات كما « تلطش » الخادومات المصريات . . ولذلك حرصت على أن تبقىها سجيئة داخل البيت . . ولكن الاتفاق مع فيوليتا كان يفرض أن تمنح اجازة يوما من كل اسبوع . . وقد اختارت أن يكون يوم الأحد . . وحجتها انها تعودت أن تذهب الى الكنيسة وتصل في هذا اليوم . . ووضعت الزوجة تخطيطا جديدا يوفر لفيوليتا حقها وفي الوقت نفسه يضمن عدم « لطشها » منها وسحبها الى خدمة عائلة أخرى . . فسمحت لها بالاتصال باثنتين او ثلاثة من

الفتيات الفلسطينيات اللاتي جئن للعمل في مصر عن طريق ابن عم صديقتها كوتر . . واتفقت معها على أن تذهب معهن الى الصلاة في الكنيسة كل يوم أحد ثم تدعوهم لتناول الغداء وقضاء اليوم داخل البيت . . كأنها سمحت لها بإقامة حفل كل اسبوع تدعو اليه صديقاتها . . وان كانت الزوجة قد بدأت بعد ذلك ينتابها الهلع فقد سمعت ان فتاة تايلاندية تعمل لدى إحدى العائلات المصرية وقفت امام ربة العائلة وقالت لها ببساطة إنها تريد ان تتعرف الى صديق شاب . . فهي لاتستطيع ان تعيش شبابها وهي محرومة . . ومن يدري . . ربما طلبت فيوليتا أيضا أن يكون لها صديق شاب . . وربما فوجئت بها وهي تدخل البيت في يوم الأحد ومعها هذا الشاب . . وتحاول الزوجة أن تطفئ هذا الهلع . . لا . . ان فيوليتا فتاة مهذبة محترمة . . ثم انها من الفلبين وليست من تايلاند كالفتاة التي سمعت عنها . . وقد سألتها يوما وهي تفعل التضاحك معها :

- الاتفكرين في الزواج يا فيوليتا ؟

وأجابت فيوليتا في هدوء :

- إن ما ادخره من مرتبى حتى اليوم لايكفى للزواج . . وعندما يكفى سأزوج في بلدى . .

انها فتاة مهذبة جادة . .

وربما كانت جديتها وتقانيها في خدمة البيت والعائلة مما دفع عثمان الى أن يلين في معاملتها . . والى اقتراب التفاهم بينهما . . واصبحا يشتركان في اعمال البيت بروح صافية وتالف كامل . . كان عثمان قد نسي كل ما تأخذه من العائلة أكثر . . بل انه بدأ ينطق بعض الكلمات الانجليزية أخذها من فيوليتا . . وهي أيضا بدأت تتكلم بعض الكلمات العربية أخذتها من عثمان . .

ومر عام وست البيت فخورة بالقمة التى وصل بيتها اليها . . قمة الاستقرار والنظام والراحة . . لم يعد اى شئ يتعبها فى ادارة البيت . . ولاشك ان فيوليتا كانت صاحبة الفضل فى كل ما وصل البيت اليه . . ولكنها فوجئت ذات صباح بخبر منشور فى كل الصحف . . وصرخت كأنها نكبت فى عزيز لديها . . لقد قررت الحكومة منع استخدام بنات جنوب شرق آسيا كعاملات او خادمات فى البيوت او الاقامة فى مصر . . اى بنات الفلبين وتايلاند وماعولهما . . وسيقبض البوليس على كل من يجده من هؤلاء البنات ويرحلهن الى بلادهن . .

وقد ابلفت الخبر الى فيوليتا وقررت ان تسجنها داخل البيت حتى لايراها البوليس فى الشارع . . بل تكاد تحبسها داخل دولاى حتى لايراها احد من المترددين على البيت . . ولكنها تعلم ان كل هذا لايكفى . . وتكاد تجن . . ما هذا الظلم . . كيف تسمح الحكومة للبنات المصريات بالهجرة للعمل فى الخارج ولا تسمح للبنات الاجنبيات بان يكن بديلات عنهن ويعملن فى الداخل . . وهى منذ البداية تعمدت ان تستكمل كل الاجراءات الرسمية ليكون لفيوليتا حق الاقامة والعمل فى مصر . . ولكن ماذا تفعل الآن . . وحيرتها تزداد وتكاد تكذب على الناس وتقول لهم انها طردت خادمتها الفلبينية . . كأنها تخدع البوليس والمخابرات . . وتخدع الدولة . .

ومرت أيام طويلة قبل ان تقول لها صديقتها كوثر التى تستخدم هى الاخرى فتاة فلبينية . .

- الحل الوحيد الذى وصلت اليه بعد ان استشرت وتحريت هو ان أزوج خادمته بأى رجل مصرى . . انها بذلك يكون لها حق الاقامة والعمل فى مصر طول عمرها . . لماذا لم يخطر على بالها هذا الحل . . انها تعرف ان كل الشبان والبنات الذين يهاجرون الى الخارج يكون اول ما يسعون اليه هو الزواج من اهل البلد حتى يكون لهم حق الاقامة فيه . . ومحمود ابن الشيخ راجى هاجر الى امريكا وتزوج فتاة امريكية ليكتسب حق الاقامة . . وانجب

منها ولدين . . ولكنه بعد عشر سنوات ترك زوجته واولاده لانه قرر ان يعود الى مصر . .

ستزوج فيوليتا فى مصر . .

ولكن تزوجها من ؟

واقبلت على زوجها وهى لاتكف عن ان تروى له كل تفاصيل المشكلة يوما بيوم . . رغم انها تعلم انه لن يبذل اى جهد معها سوى تدليلها للتخفيف عن عذابها . . وسألته . . الا يعرف اى رجل يمكن ان يتزوج فيوليتا . . انه ليس زواجا بالمعنى المفهوم . . انه مجرد اجراء رسمى كاستخراج ترخيص لها بالاقامة والعمل . . وبدلا من ان تدفع الرسوم للموظف المختص تتزوجه . . وقد يقبل هذا الزواج اى رجل غلبان فانها مستعدة ان تدفع له ثمنا لقبول هذا الزواج . . حتى لو اضطرت ان تدفع له مرتبا شهريا باعتباره زواجا مهنيا ليس له حقوق الزوج . . وقال زوجها ضاحكا :

- الاسهل ان اتزوجها انا . . ونحل المشكلة . .

وصرخت فى وجهه :

- قطع لسانك . .

ثم لمعت عيناها ببريق ذكائها . . انها تعرف من يتزوج فيوليتا . . انه عثمان . . ولن يتير اى شكوك . . فكلاهما يعملان ويقيمان فى بيت واحد . . وسواء تزوجا أو لم يتزوجا فلن يعلم احد . . انها بهذا الزواج تحمى نفسها من اتهامها بالتحايل على الحكومة . .

ونادت فيوليتا ودخلت معها فى حديث طويل . . انها طبعا لاتقبل عثمان كزوج . . انها مثقفة ولها طموحها وعثمان يعتبر جاهلا ولايحقق شيئا

من هذا الطموح . . ولكن ما سيتم ليس زواجا ولا يربطها بشيء . . ستبقى كما هي . . تنام وحدها في غرفتها . . ولا تلتقي بعثمان الا وهما يعملان في البيت . . وتستطيع في أى وقت ان تترك البيت ومصر كلها وتعود الى بلادها . . وورقة الزواج التى تكتب في مصر لانتساوى شيئا في الفلبين . .

واستغرقت فيوليتا في التفكير كأنها تراجع جداول الحساب . . ثم هزت رأسها موافقة . . انها موافقة على الزواج من عثمان . . فقط لتبقى في مصر . . وتتححرر من اختبائها داخل البيت وتستطيع ان تخرج الى الشارع دون أن تخاف القبض عليها . .

بقى ان تقنع عثمان بهذا الزواج . .

ولكن كيف تقنعه ؟

انه انسان شاذ في كل تصرفاته وتحركاته وحتى فيما يقوله . . وقد يدفعه شذوذه الى قبول هذا الزواج ببساطة . . ولكن . . من يدري . . إن الشواذ لا يدري أحد ما يقدمون عليه وما يقبلونه أو يرفضونه . .

وانفردت بنفسها ساعات تعد كل كلمة ستقولها لعثمان . . ثم نادته . . ووقف امامها مستسلما . . وبدأت بأن ذكرته بقرار الحكومة بابعاد كلعاملات في البيوت الاجنبيات ومن بينهم فيوليتا . . وهو يعلم انها خادمة شاطرة ومهذبة ولم يحدث منها ما يشينها . . وقد أصبح البيت في اشد الحاجة اليها . . والوسيلة الوحيدة لتبقى فيوليتا معهم هي أن يتزوجها . .

وقال عثمان كأنه لا يصدق اذنيه :

- من يتزوجها ؟

وقالت وهي تبسم له ابتسامة واسعة :

- انت ياعثمان . . وانت تعرفها . .

وقاطعها في حدة :

- عيب يا ست هانم . . إنى لم اتزوج حتى اليوم ، ولا أفكر في الزواج . . وحتى اذا نويت الزواج ، فلن اتزوج بنت غريبة تتكلم الأفرنجية . . ومسيحية . . ستكون فضيحة تشمت في كل اهل البلد . . اننا يا ست هانم لانتزوج الا من بنات بلدنا . .

ورفعت صوتها على صوته وصاحت :

- انه ليس زواجا ياعثمان . . انه مجرد ورقة تترك فيوليتا تعيش معنا . . وسيبقى كل منكما في حاله . . وهذه الورقة ستبقى سرا وسأحتفظ بها معي . . حتى زوجى وأولادى لن يعرفوا عنها شيئا . .

وقال عثمان وقد اختلج صوته كأنه غاضب أو قرفان :

- ليس هناك ما يبقى سرا يا ست هانم . . خصوصا عن عم جمعه البواب . . وسيعرف كل ما في العمارة بان فيوليتا أصبحت منسوبة الى . . والله اعلم ماذا سيقولون . . وعن اذنك يا ست هانم انى ساترك الشغل عندكم . . حتى تجدى شخصا آخر يتزوج هذه البنت . .

وادر ظهره خارجا . . فقامت منظورة وجرت وراءه وامسكت به وهي تصيح :

- لا ياعثمان لاتترك البيت . . ولن ازوجك فيوليتا . . لن تتزوج ابدا . .

واحنى عثمان رأسه وهو يتنهد كأنه يضمم جراحه وقال :

- حاضر يا ست هانم . . انت الخير والبركة . .

وعادت والحيرة تسيطر عليها وهي تبحث عن الوسيلة التي تحفظ لها وجود فيوليتا . .

* * *

ومضت أيام وست البيت مستسلمة لليأس . . وليحدث ما يحدث . . سواء بقيت فيوليتا أو لم تبقى فإنها تستطيع أن تعيش والبيت سليم . . ولكنها بدأت تلاحظ انفراد فيوليتا بالجلوس مع عثمان ساعات طويلة في الفترات التي لا يعملان فيها . . والحديث بينهما معظمه بالإشارات وتنطلق خلاله الكلمات الانجليزية التي تعلمها عثمان والكلمات العربية التي تعلمتها فيوليتا . .

ومضى حوالى اسبوعين عندما فوجئت بعثمان يقف امامها ويبدأها قائلاً في صوت خفيض يتعثر بين انفاسه وجفنيه مرتختين فوق عينيه كأنه لا يستطيع أن ينظر اليها :

- لك حق ياست هانم . . إننا في حاجة الى فيوليتا لخدمة البيت . . وأنا لم أعد أستطيع أن أعمل وحدى . . حتى لو اضطررت الى أن أتزوجها . .

وشبهت ست البيت من دهشة المفاجأة وقالت في فرحة كأنها تزغرد :

- هل تتزوجها يا عثمان . .

وقال عثمان كأنه خجول :

- الأمر أمرك ياست هانم . .

وسالت نفسها خلال فرحتها . . كيف قبل عثمان زواج فيوليتا . . لا بد أنها اقنعتة بأن يتزوجها . . ولكن كيف اقنعتة . . انها في منتهى الذكاء ومنتهى الشطارة ولاشك انها كانت تريد الاطمئنان الى بقائها في مصر . .

لاحبا في مصر ولا في عثمان ولكن حرصها على أجراها الكبير الذي تنقاضه بالدولارات . .

وسارعت ست البيت بعقد زواج عثمان وفيوليتا . . وقد راعت ان يعقد في السر ودون ضجة . . فاستدعت الماذون الى البيت في ساعة الظهر وأوقفت امامه العروسين وطلبت من زوجها ان يوقع كشاهد . . رغم أنها كانت قد وعدت ان يبقى الزواج سرا حتى عن زوجها ارضاء لعثمان . . بل انها اكتشفت ان هذا العقد يجب ان يسجل في مكاتب الشهر العقاري حتى يصبح عقدا كاملا وتتعترف به الحكومة . . فان العروس أجنبية . . فاستطاعت ان تعد كل شيء ليذهب عثمان ويسجل عقد زواجه . . وقد دفعت هي كل تكاليف هذا الزواج . . وان كانت لم تفكر طبعاً في دفع المهر او شراء شبكة . . وان كانت قد رفعت مرتب عثمان عشرة جنيهات أخرى شكراً ومكافأة له على زواجه من فيوليتا . .

وتصورت ست البيت انه لم يتغير شيء في حياة البيت بعد هذا الزواج . . ولم يزد شيء إلا اطمئنانها الى بقاء فيوليتا معها . . ولن تستطيع الحكومة ان تطردها من خدمتها . . والحياة تسير في روتينها العادى . . تنام فيوليتا في مكانها المعد لها في غرفة الأولاد . . وينام عثمان في حجرته فوق السطوح . . ساعات العمل لا تختل . . ولكنها لاحظت أن فيوليتا بعد ان ينزل عثمان من السطوح تسرع وتعد له كوب الشاي . . ويجلس مرتاحاً وهو يشربه . . ثم لاحظت أنها بعد أن تنتهي من أعمال البيت تصعد الى السطوح دون استئذان بينما يبقى عثمان داخل الشقة ولا يصعد معها . . ربما تصعد وحدها لتقوم بتنظيف وتسوية الغرفة التي ينام فيها زوجها . . إنها زوجة كاملة . . ثم فوجئت في صباح يوم الاحد وفيوليتا متكاسلة عن الذهاب الى الكنيسة كعادتها . . وسألتها في دهشة :

- الا تذهبين الى الكنيسة ؟

وقالت بلامبالاة

- انى اصلى بينى وبين نفسى فعثمان لايريدنى ان اذهب الى الكنيسة . .

وقالت محتدة :

- هذا ليس من حقه . . إن الاسلام يبيع الحرية لكل دين . . حتى لو تزوج مسلم من مسيحية . .

وقالت فيوليتا فى هدوء :

- سواء كان من حقه اولم يكن . . فان هذا يريجه . .

بل إن فيوليتا لم تعد تذهب الى صديقاتها الفلبينيات يوم الأحد . . انما أصبحت تقضى يوم الاجازة كله فوق السطوح وفي غرفة زوجها . . حتى وهو بعيد عنها يعمل فى الشقة لأن اليوم ليس يوم اجازته . . بل أصبحت عندما تدعو صديقاتها كما تعودت لاندعوهن الى داخل البيت بل تدعوهن للجلوس معها فوق السطوح . .

ولم تحاول ست البيت أن تتدخل فى هذه التغيرات التى تحدث . . فكلها تغيرات لاتؤثر فى اعمال البيت . . رغم انها تدهش لآى تغير فى حياة فيوليتا وعثمان رغم أنهما لا يعيشان حياة زوجية كاملة . . ولايزال كل منهما مستقلا بشخصيته عن الآخر وينام وحده فى مكانه . . ولم تتدخل الا عندما حاولت أن ترسل فيوليتا الى السوق لتشتري بعض الاحتياجات . . فرفضت معتذرة . . لأن عثمان يرفض أن يسمح لها بأن تخرج وحدها . . ويراهم اصدقاءه ومعارفه فى الطريق . . من يدري ربما تجرا عليها احدهم . . ولكنها أصرت على أن ترسلها الى السوق ، ونادت عثمان وأبلغته باصرارها على أن تخرج فيوليتا . .

وقال عثمان فى اصرار هو الآخر :

- لايصح ياسيديتى أن تخرج وحدها . . واذا اصررت سيادتك فسأخرج معها .

- إن عثمان يتغير لم يعد هذا الشخص الشاذ فى بساطة ساخرا من كل شيء . . مستسلما حتى لفقره . .

وقد اضطرت ست البيت يومها ان تكلف عثمان بالذهاب الى السوق وحده بدلا من زوجته فيوليتا حتى لاتثير أزمة معه فى مواجهة اصراره . .

وربما كان على حق فى هذا الاصرار . . فان خبر زواجه من فيوليتا لم يعد سرا وعرف بين كل من فى العمارة . . بل وعرف خارج العمارة حتى أن احدى صديقاتها فاجأتها فى احدى الزيارات قائلة :

- سمعنا ان خادمك الفلبينية تزوجت من السفرجى الذى يعمل عندك . .

وافقتلت ضحكة واجابتها قائلة :

- إنها حكاية حب . .

وكانت تكذب . . فعثمان وفيوليتا لم يتزوجا عن حب . . انهما تزوجا بتخطيط وضعته لتهرب من قرار الحكومة بطرد فيوليتا . . وهذا الزواج لم يعد سرا وتستطيع أن تنكره فعلى الأقل تحاول أن تنفى عن نفسها انها خططته تحايلا على قرار رسمى . .

الى ان فوجئت يوما بعثمان يقف امامها بعد انتهاء عمله وقال بصوته الذى شمله التغيير أيضا وأصبح صوتا جادا مركزا ليس فيه رنة الشذوذ :

- ياست هانم . . لى طلب أرجو الا ترفضيه . .

وقالت مبتسمة

- اطلب يا عثمان .

وقال دون ان يهتز أو يرتعش .

- انى اعلم ان فيوليتا تقبض مرتبتها بالدولار . . . وانا ايضا اريد ان
أخذ بالدولار . .

وانتقضت مذعورة ، وقالت وكأنها تصرخ :

- ان فيوليتا لاتأخذ دولارات ولكننا نضعها لها في البنك ويحول الى
عائلاتها . . وانت وعائلتك تعيشون في مصر فما حاجتك الى الدولارات . .

وقال عثمان وهو يتنحج في هدوء :

- لقد اصبحت اعرف كل شيء عن عائلة زوجتى . . لقد اصبحت
عائلتى . . واعرف اين تذهب الدولارات التى توضع لها في البنك . . واريد
ان احصل انا ايضا على دولارات حتى تكون في حالة واحدة . . و . .

وقاطعته صائحة :

- ان زوجى وسيدك وسيد البيت لايقبض بالدولارات حتى نوزعها
عليكم . . وانا اعانى مصاعب كثيرة لاحصل على الدولارات لفبوليتا . . ولن
استطيع ان احصل على المزيد لدفع لك ايضا بالدولار . . وإذا كنت تريد
زيادة مرتبك بعد ان تزوجت . . فقد اعطيتك زيادة . . وقد اعطيك اكثر . .
ودائما اعطيك بالجنيهاات لا بالدولارات . .

وقال عثمان وهو يبتعد في هدوء :

- شكرا يا ست هانم . . ولامؤاخذه . .

وابتعد عنها دون أن يزيد إلحاحا وأصرارا . . وهى متعجبة . . كيف

خطرت له فكرة أن يأخذ أجره بالدولار . . لاشك أن فيوليتا هى التى وضعت
هذه الفكرة في رأسه وحرضته عليها . . إنها وحدها التى تعرف قيمة الدولار
وتحتاج اليه في تعاملها مع الخارج . . وبنات فيوليتا وأخذت تناقشها كأنها
تصب غضبها عليها وتهم أن تضربها . . وفيوليتا لاترد الا بكلمات عابرة
لامعنى لها . . إلى أن صاحت في وجهها :

- حذرى عثمان الذى أصبح زوجك من أن يعود الى حديث
الدولارات . . والا حرمك انت ايضا منها . . فأنت اليوم زوجة مصرية وكل
حقك لايتعدى الجنيهاات المصرية . .

وانتهت الازمة . . وحتى ترضيها . . ابلفت عثمان بانها قررت أن
تعطى زوجها فيوليتا عشرة جنيهاات كل شهر علاوة على مرتبتها بالدولار حتى
تغطى احتياجاتها التى تجدها في مصر . . وقالت له ضاحكة :

- انى لا اعطيها الا لانى اعتبر ان ما اعطيه هو لك . .

كم مضى ؟

شهران . . ثلاثة . . اربعة . . واستيقظت ست البيت من النوم ذات
صباح فلم تجد في البيت لا فيوليتا ولا عثمان . . وجنت وهى تهوول بحثا
عنهما . . الى أن وجدت خطابا متروكا في مكان ظاهر على المائدة ويحمل
اسمها . . وهو خطاب باللغة الانجليزية كتبته لها فيوليتا . . وهى تعتذر في
كلمات مهذبة عن ترك الخدمة هى وزوجها عثمان . . وقد سافرا للعمل في
السعودية . . وهما وان كانا يقبضان مرتبهما هناك بالريال السعودى الا أن
من السهل تحويله الى دولارات . .

وسقطت منهارة . .

وداهمها وهى منهارة تسأول كان غائبا عنها . . كيف استطاعت
فيوليتا أن تخرج من مصر في حين انها تحتفظ بجواز سفرها معها . . كأنها

- اطلب يا عثمان .

وقال دون ان يهتز أو يرتعش .

- انى أعلم ان فيوليتا تقبض مرتبتها بالدولار . . وأنا أيضا أريد ان
أخذ بالدولار . .

وانتقصت مذعورة ، وقالت وكأنها تصرخ :

- ان فيوليتا لاتأخذ دولارات ولكننا نضعها لها في البنك ويحول الى
عائلاتها . . وانت وعائلتك تعيشون في مصر فما حاجتك الى الدولارات . .

وقال عثمان وهو يتنحج في هدوء :

- لقد أصبحت اعرف كل شيء عن عائلة زوجتى . . لقد أصبحت
عائلتى . . واعرف اين تذهب الدولارات التى توضع لها في البنك . . وأريد
ان أحصل أنا أيضا على دولارات حتى تكون في حالة واحدة . . و . .

وقاطعته صائحة :

- ان زوجى وسيدك وسيد البيت لايقبض بالدولارات حتى نوزعها
عليكم . . وأنا اعانى مصاعب كثيرة لأحصل على الدولارات لفبوليتا . . وإن
استطيع ان أحصل على المزيد لادفع لك أيضا بالدولار . . وإذا كنت تريد
زيادة مرتبك بعد ان تزوجت . . فقد أعطيتك زيادة . . وقد أعطيك أكثر . .
ودائما أعطيك بالجنيهاات لا بالدولارات . .

وقال عثمان وهو يبتعد في هدوء :

- شكرا يا ست هانم . . ولامؤاخذة . .

وابتعد عنها دون أن يزيد إلحاحا واصرارا . . وهى متعجبة . . كيف

خطرت له فكرة أن يأخذ أجره بالدولار . . لاشك أن فيوليتا هى التى وضعت
هذه الفكرة في رأسه وحرضته عليها . . إنها وحدها التى تعرف قيمة الدولار
وتحتاج اليه في تعاملها مع الخارج . . ونادت فيوليتا وأخذت تناقشها كأنها
تصب غضبها عليها وتهم أن تضربها . . وفيوليتا لاترد الا بكلمات عابرة
لامعنى لها . . إلى أن صاحت في وجهها :

- حذرى عثمان الذى أصبح زوجك من أن يعود الى حديث
الدولارات . . والا حرمك انت أيضا منها . . فأنت اليوم زوجة مصرية وكل
حقوقك لايتعدى الجنيهاات المصرية . .

وانتهت الازمة . . وحتى ترضيها . . ابلغت عثمان بانها قررت أن
تُعطي زوجته فيوليتا عشرة جنيهاات كل شهر علاوة على مرتبتها بالدولارحتى
تغطي احتياجاتها التى تجدها في مصر . . وقالت له ضاحكة :

- انى لا أعطيها الا لانى اعتبر أن ما أعطيه هو لك . .

كم مضى ؟

شهران . . ثلاثة . . أربعة . . واستيقظت ست البيت من النوم ذات
صباح فلم تجد في البيت لا فيوليتا ولا عثمان . . وجنت وهى تهوّل بحثا
عنهما . . الى ان وجدت خطابا متروكا في مكان ظاهر على المائدة ويحمل
اسمها . . وهو خطاب باللغة الانجليزية كتبته لها فيوليتا . . وهى تعتذر في
كلمات مهذبة عن ترك الخدمة هى وزوجها عثمان . . وقد سافرا للعمل في
السعودية . . وهما وإن كانا يقبضان مرتبتهما هناك بالريال السعودى الا ان
من السهل تحويله الى دولارات . .

وسقطت منهارة . .

وداهمها وهى منهارة تسأول كان غائبا عنها . . كيف استطاعت
فيوليتا أن تخرج من مصر في حين انها تحتفظ بجواز سفرها معها . . كأنها

كانت تحتفظ بها كلها في يدها حتى لاتهرب منها . . وقامت تترنح في مشيتها بين قطع الاثاث . . وفتحت الدرج الذى تحتفظ فيه بجواز سفر فيوليتا . . انه ليس في الدرج . . لقد يسرقته . . وكان من السهل عليها ان تسرق كل شيء . . فقد كانت تتق فيها ومطمئنة اليها . . ولكنها في الواقع لم تسرق الا جواز السفر . . لاشيء اخر رغم كثرة ماف ادراجها . . ورغم ذلك فكان يجب الا تطمئن اليها . . لاتطمئن الى الطموح الذى يسيطر على كل من يعمل خارج بلده . . والذى قد يدفعه الى الكذب والى السرقة . . والى الهرب . . وقد حاولت ان ترضى طموح فيوليتا بالحب الذى كانت تسيقه عليها . . ولكن لعل فيوليتا لم تكن تؤمن او تعرف الحب . . انها جردت عثمان ايضا من الحب بعد ان تزوجته . . حب البيت الذى تعمل فيه والعائلة التى تعمل معها . . ان طموحها فوق الحب . . طموح ينحصر في كم تكسب . . حتى انها كانت حريصة على الا تهرب من العمل هى وعثمان الا في اوائل ايام الشهر الجديد بعد ان اطمأنت الى انها هى وعثمان قد تسلما المرتب كاملا . .

ورقدت ست البيت على فراشها وهى تقاوم انهيارها . .

انها تستطيع ان تقاوم ضياع فيوليتا منها . .

ولكنها لاتستطيع ان تقاوم ضياع عثمان بعد هذا العمر الطويل الذى قضاه في بيتها ومعها ومع اولادها . . كانه كان يدا تتحرك في كيان كل منهم . .

ولكنها ست بيت قوية . .

وتعتبر عثمان كانه مات . .



أرى أمي معلقة في أذنيك . .

كانت فريدة قد ذهبت في الصباح إلى حى خان الخليلى كعادتها في كثير من الأيام . . فهى تحب التردد على دكاكين صياغة الحلى ودكاكين التحف القديمة التى تعتمد على الصناعة اليدوية وتحمل مهارة يد الصائغ المصرى من هذه التحف من اعاجيب . . وحى ودكاكين خان الخليلى ليس مخصصا للسياح كما يتصور البعض . . إن أغلبية هذا الزحام من الزبائن كلهم من النساء المصريات . . وبينهن فلاحات وبنات بلد وبنات ذوات . . وكل منهن معها مايكفى للشراء . .

وكانت فريدة لاتشتري دائما كلما ذهبت الى خان الخليلى . . كانت في الغالب تكفى بالتمتع بالفرجة على المعروضات . . وقد ذهبت في هذا اليوم دون ان تحدد شيئا تشتريه . . ولكنها رأت وهى في دكان أحد الصاغة قرطا ذهبيا أثار اعجابها . . إنه مرسوم على شكل عدة قلوب ذهبية صغيرة متشابكة في دائرة تتوسطها مجموعة من الفصوص الذهبية الصغيرة جدا كأنها ترمز عن تنهدات هذه القلوب بالحب . .

والتقطت فريدة هذا القرط وعلقت في أذنيها ووقفت تتفرج على نفسها امام مرآة الدكان . . وأحسّت كأن هذا القرط يعلن حبها . . كانه يقول لكل الناس أنها في حالة حب . . تحس وهى تعلقه في أذنيها كأنها تطلق حبها لزوجها علام . . ستشتريه . . قطعاً ستشتريه . . حتى يرى علام حبه معلقاً في أذنيها . .

وقالت للبائع وهى فرحة أنها عثرت على حلم من أحلامها .

- منذ متى ولدك هذا القرط . . . انى لم آره لديك من قبل ؟

وقال البائع كأنه يروى لها تاريخا لتحفة عريقة :

- انه فى الأصل مصاغ فلاحى . . . كان منتشرا فى الأرياف منذ سنوات طويلة . . . وقد جئنا به الى القاهرة منذ أسابيع فقط لمجرد تجربته . . . دون أن نكون متأكدين بأن أذواق نساء القاهرة ستتفق مع أذواق نساء الريف . . . ولكننا ماكدنا نعرضه حتى أقبلت عليه نساء القاهرة وانتشر انتشارا واسعا . . .

وقالت فريدة من خلال فرحتها :

- سأشتريه . . . كم ثمنه ؟

وقال البائع بلباقة التجار :

- اننا لسعة انتشاره بين مختلف الطبقات صنعناه من ثلاثة اصناف . . . صنعناه من المعدن المذهب بثمن اثنين ونصف من الجنيهات . . . وصنعناه من الفضة المطلية بالذهب بثمن أربعين جنيها . . . ثم من الذهب الخالص بثمن مائة وخمسين جنيها . . . لقد أصبح كأنه شارة شعبية . . . وقاطعته فريدة ضاحكة :

- انه شارة الحب . . .

وقال البائع من خلال ابتسامته التجار :

- أى صنف منه تريدین ؟

وفكرت برهة . . . أن هذا القرط سيكون شعار حبها لزوجها غلام . . . حبها الغالى . . . ويجب أن يكون شعارا غاليا من الذهب الخالص . . . وقالت بانطلاق :

- سأشتري الذهب . . . ولكن ليس معى الآن سوى خمسين جنيها وسأعود اليك بالباقي غدا . . . هل أستطيع أن أخذها اليوم وانت مطمئن الى الغد . . .

وقال وهو يجمع لها الحلق فى علبة من القطيفة الحمراء :

- طبعاً . . . طبعاً . . .

وهو فعلا مطمئن . . . فهو يعرفها كزبونة . . .

* * *

وعادت فريدة الى البيت وجلست أمام المرأة فى انتظار عودة زوجها غلام من عمله . . . وسأوت شعرها بأن رفعتة حتى يكشف عن أذنيها وعلقت فيها قرط الحب . . . وقضت فترة أمام المرأة وهى تبلى فى القرط على أذنيها . . . لاشك أن زوجها سيطير من الفرحة عندما يرى قلوب الحب . . . سيرى نفسه وكأنه معلق فى أذنيها . . . حتى لو حاول أن يحتفظ بطبيعته الكتومة الجامدة فى التعبير عن عواطفه . . . فلن يستطيع عندما يرى الحلق الا أن يطلق فرحته . . . قد يزغرد فرحا وهو يحتضنها بين ذراعية بعد أن يثير الحلق فيه حبه وحبها . . . أو على الأقل قد يبتسم وهو الضنين بابتسامته . . . ويقبلها ولوقبله من هذه القبلات الشريفة التى عودها عليها . . .

وعاد غلام :

ووقفت أمامه وبين شفتيها ابتسامة فرحة صامته فى فرحتها :

ولكن غلام لم يلمح القرط فى أذنيها . . . ولعله لم يلمح ابتسامتها أيضا . . . وهم أن ينسحب من أمامها ويدخل حجرته ليبدل ثيابه استعدادا للجلوس على مائدة الغداء . . . فجرت وراءه وجذبت من ذراعه ليستدير اليها وهى واقفة أمامه . . . وقالت محتفظة بابتسامتها وفرحتها

- اخلعيه . . واعيديه الى البائع أو اكتفى بالظهور به بين صديقاتك بعيدا عنى . . لا أريد أن أراه . . لا أريد أن أراه . .

ورفعت فريدة يدها وشددت القرط من فوق أذنيها وهى دهشة من ثورة زوجها الى هذا الحد . . خيل اليها أنه قد أصابه جنون . . وقالت فى صوت حزين بعد أن ضاعت فرحتها :

- انى لم أدفع ثمنه . . وسأعيده غدا . .

وظلت صامئة وهى تساعده فى تغيير ملبسه . . ثم قالت وهى تحاول أن تكون هادئة :

- على الأقل قل لى ماذا لايعجبك فى هذا القرط . .

وانطلقت عيناه مبجلقتان وقال فى حده :

- لن أقول لك شيئا ولا أريد أن أسمع شيئا عن موضوع هذا القرط . .

ولم يستطع أن يأكل على مائدة الغداء . . كان ساهما يتحرك وهو جالس فوق مقعده كأنه يحاول أن يهرب من مطاردة . . وقام فجأة وجرى الى الفراش وادعى النوم كعادته بعد الغداء . . ولكنه لم يكن نائما . . وكان يقبل رأسه فوق الوسادة ، وكأنه يطرد ذكرى تكاد تهشمه :

إن هذا القرط سبق وقتل اثنان . .

* * *

لقد كان أيامها لايزال صبيا فى السابعة من عمره . . وكانت العائلة كلها تقيم فى القرية . . وكان لهم فيها دوارا واسعا بجانب العشرة أفدنة التى يملكها والده ويزرعها . . وكانت أمه تضع هذا القرط على أذنيها

- ألا ترى فى شيئا جديدا . .

وقال فى دهشة :

- أين هذا الشيء الجديد ؟

وقالت فى لهجة كرم :

- على أذننى . .

ورفع علام عينيه الى أذنيها وما كاد يرى القرط حتى تجهم وتهدجت أنفاسه ، ثم قال وهو يبدو كأنه يقاوم نفسه وقد أصبح صوته محشرجا :

- انه قرط فلاحى :

قالت وهى تحاول أن تثير فيه فرحتها :

- أعلم . . ولكنه اليوم أصبح موضحة القاهرة . . ألا ترى ما يرمز اليه . .

وقال وقد بدأ صوته يحتد :

- انه يذكرنى بأمى وانت تعلمين انى لا أحتمل ذكر المرحومة أمى وإلا عدت الى البكاء عليها . . ارفعى هذا القرط من أذنيك . .

وقالت فى دهشة :

- ولكنى اشتريته لأنه يرمز الى الحب الذى يجمعنا . . وهو أيضا يعجبنى . .

وصاح وقد فقد اعصابه :

دائماً .. ليلاً ونهاراً .. حتى وهى تعمل فى الدوار أو فى الحقل .. كان القوط يميزها عن باقى نساء القرية .. وتتباهى به .. وكأنها تعلن به أن زوجها رجل مقتدر يعلق الذهب فى أذنيها .. أولعها كانت تؤمن بأنه قوط الحب ..

وكانت أمه تعمل أمام الفرن فى الدوار تعد أرغفة العيش الفلاحى المرحرح ومعها مسعدة زوجة برهوم ابن جارتهم أم برهوم .. والصبى علام يلعب بجانبها .. وسقطت فردة من القوط من أذن أمه فوق الحطب المعد لالقائه فى الفرن كلما هبطت ناره .. ولم ير علام فردة القوط وهى تسقط من أذن أمه ولكنه رأى مسعدة وهى تتحنى فى حركة مفاجئة فوق الحطب وتأخذ بأصابعها شيئاً تخفيه بسرعة فى صدرها تحت ثوبها .. ولم يهتم علام بما رآه مستمراً فى اللعب ..

الى أن انتهى الخبز وعادت مسعدة الى بيتها .. وفجأة اكتشفت أمه ضياع فردة القوط من فوق أذنها .. وأنحنت فى لهفة مجنونة تبحث فى كل أنحاء غرفة الفرن .. وترفع حطب القرن واحدة بواحدة .. وتتحسس بيدها فوق تراب الأرض وتحت التراب .. انها متأكدة أن القوط سقط من أذنها .. ولكن أين سقط .. وأين اختفى .. وبلغ من جنونها انها ادخلت رأسها وزراعيها داخل الفرن رغم انه كان لايزال محتفظاً بثاره بحثاً عن القوط ..

وعلام لاه .. عن أمه يلعب بعيداً عنها .. الى أن يأس أمه من العثور على فردة القوط .. وسقطت على الأرض تبكى .. انها لا تبكى القوط وحده ولكنها تبكى أيضاً خوفها من زوجها عندما يعود ولا يرى فردة القوط فى أذنها ويعلم بالخبر .. لقد عاش معها كل السنوات والقوط فى أذنها كأنه قطعة من لحمها ..

وعاد أبو علام .. وسمع الصبى أبوه يصيح صياحاً حاداً فى وجه أمه وراه كأنه يهيم بضرب أمه .. ولو أنه لم يضربها فى حياته أبداً .. ثم رأى

أباه ينحنى هو الآخر باحثاً عن القوط حول الفرن وفى كل أنحاء البيت .. وفجأة تذكر الصبى صورة مسعدة وهى تنحنى فجأة فوق الحطب وتلتقط شيئاً تخفيه فى صدرها .. واستنتج بذلك .. وهو يفيض بالذكاء منذ صباه بدليل ما هو فيه الآن بعد أن ترك القرية وأتم تعليمه .. وأصبح من كبار الموظفين .. استنتج أن مسعدة أخذت فردة القوط التى يبحث عنها أبوه وأمّه .. وصاح فيهما :

- ان مسعدة أخذته :

والثف الاب والام حول الصبى وعصروه بأسلتهما كأنهما يحققان معه حتى تغلب عليهما التاكيد بأن مسعدة هى التى أخذت القوط .. سرقته ..

وخرجت الأم من الدوار كأنها تجرى الى جارتها أم حمدان .. وانفردت بها وصارحتها بأن مسعدة زوجة ابنها برهوم قد سرت فردة القوط .. وبعد أن روت لها كل الحكاية وطالت المناقشة بينهما .. رجتها أم حمدان متوسلة أن تتركها ساعة وستعود اليها فى الدار ومعها فردة القوط ..

واستدعت أم حمدان مسعدة زوجة ابنها وصرخت فى وجهها :

- لم يبق الا أن نصبح لصوصاً ونعيش بين أهل القرية ونحن لصوص .. هات فردة القوط ..

وحاولت مسعدة وهى ترتعش أن تنكر .. إنها لم تأخذ شيئاً .. ولا تعرف شيئاً .. ولكن حمايتها انهالت عليها ضرباً حتى أخرجت سيخ الفرن وهو مشتعل بالنار وهمت أن تغرزه فى صدرها .. لولا أن اعترفت مسعدة ..

إنها أخذت فردة القوط وعادت الى بيتها وأرته لزوجها برهوم فأخذه

منها وأوصاها ألا تفشى السر لأحد حتى ولا لأمه . . وهددها بأن يقتلها لو كشفت السر . . وبرهوم معروف بين أهل القرية بالشراسة والبجاجة . . وإسمه يرتفع مع كل جريمة تقع حول القرية . . ولعله أخذ قطعة الذهب المسروقة ليبييعها في المركز . . ولكن السرقة حدثت اليوم ومنذ ساعات ولا يمكن أن يكون قد مر وقت كاف يستطيع برهوم أن يذهب فيه الى المركز ويبيع . .

واستدعت أم حمدان ابنتها برهوم وأجلسته امامها وحادثته في هدوء وهي تحسب حساب شرaste وأجرامه . . وقالت له أن زوجته مسعدة لم تكشف السر . . ولكن كشفته أم علام وابنتها هو الذى شاهد مسعدة وهي تخفى القرط في صدرها . . وعليهم أن يعيدوه الآن الى أصحابه . . والا انقلبت القرية كلها . .

واستسلم برهوم وهو يزار كالأسد الذى فرت منه فريسته . .
وأعاد القرط المسروق . .

* * *

ولم ينس برهوم أن زوجته مسعدة قد كشفت سره رغم تحذيره لها بأنه سيقتلها اذا كشفتته . .

هى التى قالت لأمه انها اعطته القرط المسروق . . كانت تستطيع أن تقصر السرقة على نفسها . . وتقول أن القرط ضاع منها . . وحتى لو استسلمت فقد كان يمكنها أن تستسلم دون ذكر اسمه ودون أن تبلغ أمه أنه أخذ منها القرط المسروق وهددها بالقتل اذا افشيت السر . . وربما كان قد أعاد القرط وهو يدعى أنه وجده مع زوجته مسعدة وأخذه منها غصبا عنها بعد أن ضربها ليؤدبها حتى يبرئ نفسه امام أهل القرية . .

ولكن الآن أصبح السر مكشوفاً . . والناس تقول انه هو الذى حرض

زوجته على السرقة وهو الذى استولى على القرط المسروق . . واصبحوا يوصفون في وجهه بالشتائم والالتهامات . . وحتى الأطفال اصبحوا يتجمعون خلفه ويهتفون . . تسرق ليه يابرهوم . . وتفضح أمك يابرهوم . .

اذن يجب أن تقتل مسعدة التى كشفت السر وفضحته . .
وخرج بها في الفجر بحجة انها تريد زيارة أمها في قريتهم القريبة . . وكان قد اقنعها فعلا بأن يأخذها لزيارة أمها . . ولم يبتعد بها عن القرية بل شدها الى جانب مستور من الحقل وذبحها . . ثم استطاع أن ينقل الجثة ويعود بها الى البيت ويحفر حفرة في فنائها دفنها فيها . .

ان برهوم قاتل محترف وهو لم يقتل زوجته في البيت حتى لا يتعرض لصرخاتها التى قد توقظ أمه . . وعاد ودفنها في فناء البيت حتى يتأكد من أنه لا يمكن اكتشاف جثتها . . ولكن أمه وحدها عرفت كل شيء . . لقد استيقظت في الليل على صوت ضربات الفأس في يد برهوم وهو يحفر في الفناء قبر زوجته . . واختفت سريعا قبل أن يراها ابنها حتى لا يقتلها هى الأخرى ويدفنها بجانب زوجته مسعدة . .

ومضت أيام مسعدة لاتعود الى القرية . . وقال برهوم انها غاضبة وتقيم مع أهلها ولاتريد العودة . . وهو لن يعيدها لأنه لا يريد أن يعيش مع لصة سارقة . . وأمّه توافق ابنها على مايقول كلما سألها أهل القرية . . ولكنها اصبحت في حالة ذهول . . انها جالسة القرفصاء دائما فوق القبر الذى حفره ابنها برهوم . . ولاتتكلم أبدا . .

ولاتنطق بحرف . . وتنام وهي جالسة القرفصاء ولاتتحرك أبدا . .
وبدا الناس يقولون عنها انها أصبحت مجنونة . .

وفوجئ أهل القرية بعد هذه الايام بأم مسعدة تاتى إليهم لتزور ابنتها . . وعندما التفت حولها الناس يسألونها . . ألم تكن ابنتك عندك . . كانت تجيب بأنها لم تزرها أبدا منذ شهر ولم تراها أبدا . . وبدأ الناس

يتساعلون .. أين ذهبت مسعدة .. ثم بدأوا يتساعلون .. ماذا فعل بها زوجها برهوم وأين أخفاها .. وأم مسعدة تجلس بجانب أم برهوم ليل نهار وهى لاتكف عن ترديد أين ابنتى .. أين مسعدة .. وأم برهوم صامته لاتنطق .. ثم فجأة بعد أن إنقضى نهار وليل ثم إنقضى نهار آخر .. انتفضت فجأة من جلستها صارخة :

- هذه هى ابنتك .. مقيمة معنا فى البيت ..

ثم التقت فاسا وأخذت تحفر فى أرض الفناء حتى تكشف القبر وظهرت جثة مسعدة .. وألقت بنفسها فوق الجثة وماتت معها ..

وثار اهل القرية كلهم ووجدوا برهوم وانهاوا عليه ضربا .. الى ان تسلمه الخفير واحتفظ به الى ان جاء بوليس المركز ..

وقدم برهوم الى المحاكمة وادخل السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة ..

ولكن حتى برهوم لم ينج من الموت .. لقد كان يقطع صخور الجبل وهو فى السجن فسقط على رأسه صخورا ثقيلا قتله فى الحال ..

* * *

وكان الصبى علام يتتبع كل هذه الأحداث التى تشهدها القرية وهو فى ذهول .. انه يحس انه كان السبب فى كل ماحدث .. لولا انه ابلىح امه واباه ان مسعدة هى التى سرقت فردة القرط لما حدث شيء .. انه لم يحس كما يحس الاطفال بأنه كان بطلا اعاد لأمه قرطها من يد اللصوص .. ولكنه كان يحس بأنه كان السبب فى كل ماجرى لمسعدة .. لقد كان يحبها .. كانت اكثر امرأة فى القرية تدله وتتحمل شقاوته .. وعندما علم انها قتلت .. وجد نفسه يتزوى تحت الشجرة ويبكى .. لقد قتلت مسعدة من اجل فردة قرط تتحلى به امه .. حرام .. والله حرام .. وحتى عندما

دخل برهوم السجن .. وبعد ان قتل هو الآخر .. كان يبكى .. إن برهوم قتل زوجته ثم مات .. من اجل هذا القرط الذى تتحلى به امه .. حرام .. والله حرام ..

وأصبح يكره هذا القرط ولا يستطيع ان يراه ..

إن هذا القرط قتل اثنين .. قتل مسعدة وزوجها ..

ولكنه فى اذننى امه دائما .. لاتريد ان ترفعه ولاتستطيع الاستغناء عنه .. وهو لايعرف كيف يتخلص منه .. وقد خطرت على باله مرة ان ينزعه من على اذننى امه وهى نائمة ويلقيه فى التربة .. ولكنه لم يجرو .. وعود نفسه على الا ينظر الى اذننى امه ابدا .. وبدأ يستريح من هذا القرط عندما كان يترك القرية ويعيش فى بيت عمه فى طنطا بعد ان كبر ودخل المدرسة الابتدائية ثم الثانوية .. ثم استراح اكثر عندما أصبح يعيش فى القاهرة طالبا فى الجامعة .. ولكنه كان لايعود الى القرية الا ويرى القرط فى اذننى امه ..

لقد ماتت امه والقرط فى اذنيتها ..

رحمها الله ..

* * *

وقد مضت سنوات طويلة وقد نسي هذا القرط الذى دفعه الى قتل اثنين .. كما نسي كل أحداث القرية بعد هجرها وابتعد عنها حتى انه باع العشرة أقدنه التى ورثها عن أبيه فيها .. ولم تعد له من القرية سوى ذكريات لاتخطر على باله الا كلما فاجأته مناسبة تذكره بها ..

إلى ان جاءت زوجته وفى اذنيتها هذا القرط .. نفس القرط الذى دفعه ليقتل اثنين ..

ورأسه تتحرك فوق الوسادة بعنف كأنه يريد أن ينزعها من عنقه ليتخلص من ذكريات هذا القرط... ولكنه يجب أن يقاوم... لماذا يستسلم لذكريات خياله وهو طفل بعد أن أصبح رجلا كاملا ناجحا...

إن هذا القرط لم يقتل مسعدة ولا برهوم... ماهذا الخيال المجنون... لقد قتلتها طبيعتهما الشريرة...

وقفز من الفراش وصاح في زوجته فريدة :

- اين هذا القرط الذى اشتريته ..

وفتحت فريدة الدولاب فى هدوء وقدمت له القرط ..

وعاد يصيح دون أن يلمسه أو ينظر فيه :

- ضعيه على اذنك ..

وعلقت فريدة القرط فى اذنيها وهى صامته ..

وعاد علام يقول كأنه يحدث نفسه دون أن ينظر الى القرط فى اذنى فريدة :

- انه قرط أمى .. وسأرى أمى فيك .. الله يرحمها ..



البحث عن الشخصية الأخرى ..

إنه مقال عمليات بناء .. يستطيع أن يبنى أى شئ .. وليس هو الذى اختار أن يكون مقاولا .. ولقد ولد ووجد نفسه مقاولا مع أبيه .. ومنذ كان فى الثانية عشرة من عمره وأبوه يدربه على أعمال المقاولات فعرف كل تفاصيلها وأسرارها .. عرف كيف يدخل فى المشروعات الحكومية ، وكيف يدفع لوكيل الوزارة أو لرئيس مجلس الإدارة ، ولهذا وذاك من الموظفين حتى يفوز على باقى المقاولين بالمشروع .. وعرف كيف يشتري أو يستورد المواد التى يحتاج إليها المشروع ، وكيف يدخل مادفعا من أثمانها وتكاليفها فى الميزانية بحيث يكسب من ورائها المبالغ الضخمة وكأنها عملية قائمة بذاتها لا يقوم بها كمقاول ولكن كتاجر شاطر يشتري ويبيع .. وعرف كيف يتعامل مع الأنفار الذين يعهد اليهم بعمليات البناء بحيث يخصص لنفسه نسبة من الأجر والأتعاب التى يكسبونها بفضلهم دون أن يتركهم يكتشفون انه كسب بفضلهم شيئا .. فمقال البناء الشاطر هو أيضا مقال أنفار .. ومهما استعان بصغار مقالى الأنفار الذين يجمعون العمال فهو نفسه مقال الأنفار الرئيسى والكبير عليهم ، وله النصيب الأكبر من مكاسب العملية ..

ورغم أن أباه اعترف له منذ صغره بعبقريته كمقاول حتى انه كان يتركه يقوم بعمليات خاصة به وهو لا يزال فى التاسعة عشرة من عمره .. ورغم ذلك فانه لم يكن يتفاخر أو يتباهى بأنه مقاول ناجح .. ربما لأنه لم يكن يريد أن يعيش كابيه الذى لا يزال يظهر بين الناس بالجبة والقفطان أو بالجلباب البلدى حتى لو كان من قماش السكروته الغالى .. ويقضى يومه بين العمال داخل العملية التى يقوم بها كمقاول .. ويتكلم كما يتكلمون وقد يجلس بينهم ليشاركهم أكل العيش والطعمية فى فترة الغداء .. انه رغم

تمسكه واقتناعه بالدخل الكبير الذى تحققه مهنة المقاتل إلا أنه لا يريد أن يعيش حياة المقاتلين كما يعيشها أبوه . . بل لا يحب أن يعرف كمقاتل . . كان صفة المقاتل لا تشرف صاحبها وترفعه إلى قمة المجتمع . . ورغم أن عثمان أحمد عثمان جعل للمقاتلين العرب شخصية من أرقى شخصيات المجتمع ، وهو نفسه وصل إلى قمة المجتمع حتى وصل إلى أن يكون وزيراً بل وأن يكون نائباً لرئيس الدولة . . وهو محتفظ بصفته كمقاتل ، ويتفاخر باسمه كرئيس شركة المقاتلين العرب . . إلا أنه لم يتأثر بشخصية عثمان أحمد عثمان كما لم يتأثر بشخصية أبيه حتى لو كان قد ورث عنه عبقريته كمقاتل . .

إنه لا يتكفى بأن يكون معروفاً كرجل واسع الثراء استطاع أن يجمع الملايين عن طريق المقاتلات . . إنه يريد أن يكون معروفاً ومشهوراً كصاحب موهبة خاصة تبهر الملايين من أفراد الشعب . . وقد انتابه هذا الاحساس منذ صباه فحاول أن يكون لاعب كرة . . أشهر لاعب كرة في مصر إلى أن يصبح أشهر لاعب كرة في العالم كله . .

والحق بنادى الزمالك وعاش في عالم الكرة . . وكل أصدقائه ومن يعرفهم من لاعبي الكرة . . وبدأ التدريبات . . ومرت سنوات وهو يتدرب . . وأن يقنع تدريبه أحد بأن يضمنه إلى فريق النادى ولاحتى اعتباره لاعب كرة . . ولكنه كان سخياً في المساهمة فيما يحتاجه فريق النادى من نفقات . . وكان مفرطاً في تكريم كل اللاعبين . . كان يقيم لهم كثيراً من الدعوات والحفلات داخل النادى . . وفي المباريات العامة كان هو الذى يعد جمهور المهللين للنادى ، ويستأجر السيارات التى تنقلهم إلى الملعب ، وتعود بهم لتطوف بهم الشوارع مهللين إذا تحقق الفوز للزمالك . . بل إنه دفع مرة ثمن شراء ملابس لعب جديدة لكل فريق النادى . . وأصبح مشهوراً بين كل أعضاء النادى . . وكلهم يحبونه . . ويحاولون دائماً إرضاءه وتحقيق مطالبه . . ولكنه حب لا يمكن أن يصل إلى حد الاعتراف به كلاعب كرة وضمه إلى فريق النادى . . إنهم لا يحبونه كلاعب ، ولكنهم يحبونه كشاب

ثرى يتمتع النادى بثرائه . . ولم يكونوا يعرفون أنه هو نفسه مقاتل ، فقد كان يخفى عنهم صفته كمقاتل ولا يحدثهم أبداً عن العمليات التى يقوم بها أو يشترك فيها . . ولكنهم كانوا يعرفون عنه أنه ابن مقاتل ثرى . . إنه لم يستطع أن يحقق أمله في أن يكون لاعب كرة معروفاً مشهوراً . . ولم يستطع أيضاً أن يتحرر من انتسابه إلى شخصية أبيه المقاتل . . إلى أن بدأت أحلامه تذوب . . حتى ارتباطه بنادى الزمالك بدأ يضعف حتى أصبح وكأنه يهرب منه . .

وكان من طبيعة مهدي عبد الصمد التى كونها في نفسه منذ الصغر هى إصراره على استمراره في الدراسة حتى نهايتها . . أنه ليس في حاجة إلى شهادة مدرسية أو جامعية تعينه على التخصص في مهنته كمقاتل . . لقد اكتسب من أبيه كل تفاصيل وأسرار المهنة حتى حقق عبقرته كمقاتل دون حاجة إلى دراسة . . ولكنه إذا أراد أن يعيش العالم الآخر بعيداً عن دنيا المقاتلات . . فهو عالم لا يعترف بالعبقرية إلا لمن يحمل شهادة علمية . . وكان ينجح دائماً في كل الامتحانات المدرسية ، وفي بساطة دون أن يحتاج للتفرد للمذاكرة . . إنه يذاكر كأنه يتفرد على مافى الكتب أو يتفرد على المدرسين . . وذكاؤه تكفيه الفرجة لينجح به في أى امتحان . . وعندما انتهى من دراسته الثانوية استمر في الدراسة الجامعية . . ولكنه لم يلتحق بكلية يستكمل فيها ما تحتاج إليه مهنته كمقاتل من علم أو على الأقل من معلومات . . كلية الهندسة أو كلية التجارة . . ولكنه اختار أبعد دراسة عن مهنته والتحق بكلية الآداب . . أنها في تقديره أقوى الكليات في فتح أبواب الشهرة . . قد يشتهر كعالم أدبي كما اشتهر طه حسين . . وقد يشتهر كتوفيق الحكيم الذى لم يعرف عنه أنه رجل قانون رغم أنه درس في كلية الحقوق ولم يشتهر إلا بعد أن درس الأدب في باريس . . وقد يصل إلى أن يكون فناناً إذاعياً أو تلفزيونياً حتى يصل إلى السيطرة على الإذاعة أو التلفزيون كما وصلت سامية صادق . .

وقد عاش مهدي عبد الصمد في الجامعة كعادته بفصل فصولاً تاماً

بين الدنيتين اللتين يعيشهما : دنيا المقاولات ، والدنيا الجامعية . فهو يتردد كل يوم على مكتب المقاولات دون أن يكتشف زملاؤه في الجامعة هذا المكتب أو يدعوا أو حتى يسمح لأحد منهم بلقاؤه هناك . إنه لا يلتقى في مكتب المقاولات إلا بمن يحتاج اليه عمله كمقاوّل . ثم يذهب إلى الجامعة ، وكأنه مجرد طالب ، ولا حديث له بين زملائه إلا كطالب . لا يحاول أن يتباهى بينهم بأنه يتميز عنهم كصاحب مهنة عبقري يكسب أموالاً ضخمة .

وقد عرف في الجامعة شلة من الطلبة تدمن لعب الشطرنج . وبدأ يسأل نفسه . لماذا لا يلعب الشطرنج . إن الإنسان يخطو في الحياة وكأنه يلعب الشطرنج . وعالم المقاولات كأنه عالم يقوم على مباريات في الشطرنج . والمقاوّل الذي يستولى على العملية ، أو على الصفقة ، فكانه يصيح في وجه بقية المقاولين . كش . ملك . والاستيلاء على العملية بين المقاولين هي كالاستيلاء على الملك الذي يحميه الخصم في لعب الشطرنج . أى أن كل من ينجح في الحياة أو في المقاولات يمكن أن ينجح في لعب الشطرنج . ولا شك أنه ناجح . وأنه عبقري . ويستطيع بعبقريته أن يهزم كل لاعبي الشطرنج في المباريات التي تقام في مصر . ويشتهر . بل قد يستطيع أن يتقدم إلى المباريات العالمية ويفوز على هذا اللاعب الروسي الذي يفوز دائماً على كل لاعبي شطرنج العالم .

وقضى سنوات وهو يقضى كل أوقات فراغه في لعب الشطرنج ، بل أنه كان يقرأ كتباً عالمية تحمل كل أسرار اللعبة . ولكنه ظل دائماً لاعباً عادياً قد يهزم بعض اللاعبين ولكن الأغلبية تهزمه . وخرج من لعبة الشطرنج بعد أن تخرج من الجامعة حاملاً الليسانس .

ولم يخطر على باله أن يبحث عن وظيفة بعد تخرجه ولا أن يحاول الاستفادة من الليسانس الذي حصل عليه في احتراف أى مهنة أخرى . وأصبح مضطراً أن يجاهر بأنه مقاوّل . ولكنه ظل كما هو يفصل بين

حياته في دنيا المقاولات . وحياته في الدنيا التي يبحث فيها عن شخصية تعرف وتشتهر كشخصية عامة . ويتمنى أن تكون شخصية فنان . ونوجة أبوه ابنة مقاوّل آخر . ولم يكن يتمنى مثل هذا الزواج . كان يتمنى أن تكون زوجته ابنة رجل مشهور في الحياة العامة أو تكون هي نفسها مشهورة . ولكنه كان مضطراً إلى الاستسلام لأبيه . فقد كان المقاوّل الآخر والد زوجته قد فاز بعملية مقاولات كبيرة منتصراً على أبيه الذي كان يحاول أن يفوز بنفس العملية . ثم أراد أبوه أن يشاركه في هذه العملية . فتقدم طالباً ابنته لابنه . حركة من حركات لعبة الشطرنج .

والواقع أن وضع أبيه كمقاوّل بدأ يضعف . وبدأ الباب الواسع يضيق في وجهه . ربما لأنه شاخ ولم يعد يتحمل ثقل كل هذه المسؤوليات . وكان يجب أن يتحرك مهدى عبد الصمد وحده حتى يعيد بناء القوة التي ضعفت . قوته كمقاوّل . فأخذ زوجته وسافر إلى البلاد العربية . واستطاع بسرعة أن يفوز بعملية في كل بلد مر به . واستطاع خلال سنوات قليلة عابرة أن يجمع الملايين .

ولم يتغير . كان يقضى يومه في مجال عمله كمقاوّل ، ثم يعود إلى البيت قبل أن يحل المساء . ويجلس بعيداً عن زوجته يفكر في الشخصية الأخرى التي يريد لها لنفسه . ويفضلها شخصية فنان . إن الفن هو الطريق الواسع السهل لبناء الشخصية العامة .

ووجد نفسه يبدأ في كتابة الشعر والزجل . ربما لأن الحياة وهو مهاجر وراء عمله في البلاد العربية ليس فيها مجتمع مفتوح لكل الفن . إن أقوى فن في هذا المجتمع لا يزال هو الشعر . ولعله تأثر بهذا المجتمع فبدأ يكتب الشعر . وإن كان لا يكتب شعراً ولاحتى مجرد زجل . أنه يكتب وكل ما في خياله أنه يكتب أغنية . لاشك أنه يملك موهبة كتابة الأغاني . فهو منذ صباه وهو يحفظ كل كلمات الأغاني التي يسمعها ويتذوقها . وقد يصل به هذا التذوق إلى أن يكتب مثلها بل وأرقى من مستواها .

وكتب عشرات من الاغاني .. وكان يتصور مع كل اغنية المطرب او المطربة التي ستغنيها .. بل كتب اناشيد وطنية يغنيها الشعب كله .. وكان يحتفظ بما يكتب في درج مكتبته في انتظار أن يعود الى مصر .. إنه لم يفكر أبدا في الا يعود الى مصر .. أى أن يهاجر ويركز كل عمله في الخارج .. لقد ترك مصر سنوات ليجمع رأس المال الذى يستند اليه ، والذى كان قد ضعف فعلا في اواخر أيام أبيه .. وقد استطاع أن يجمع من الخارج رأس مال ضخم .. جمع الملايين .. ولكن مالا يعرفه صغار المقاولين والاغنياء منهم هو أن استغلال رأس المال داخل مصر أسهل ويدر أرباحا أكثر من استغلاله في الخارج .. المهم أن يكون معك هذا الرأس مال .. وسيعود إلى مصر لاستغلاله في داخلها ..

وقد ارسل زوجته وولديه الى مصر وسافر وحده الى أوروبا مارا بسويسرا وفرنسا وانجلترا قبل أن يعود الى مصر .. ان رؤوس الاموال الضخمة التي جمعها يحتفظ بها في بنوك أوروبا .. وليس له في مصر إلا ما يحتاج اليه من رأس مال .. وهناك عشرات الطرق للتعامل مع رأس ماله الموضوع في أوروبا وهو مقيم في مصر .. وكان وهو في جنيف - في سويسرا - يمر على صالات ألعاب القمار لمجرد الفرجة .. إنه لم يسبق له أن لعب القمار بادمان أو يعتمد السعى إلى المكاسب الضخمة .. انما كان يلعب مع الاصدقاء أحيانا لمجرد الضحك والتسلية .. وتعلم لعبة الكونكان والبوكر والشايب .. و .. و .. منذ صغره لمجرد التسلية .. ولكنه وهو في جنيف يطوف بصالات القمار بدأ ينتابها احساس بأنه يستطيع أن يكسب كل هؤلاء اللاعبين .. لماذا لا يجلس بينهم ويتحداهم بعبقريته .. انه دائما يكسب في حياته ، فلماذا لا يكسب في القمار ، وهو يرى أنهم يلعبون بمبالغ ضخمة قد تتعدى الآلاف وقد تصل الى الملايين .. ولكن لا يهم .. ان لديه ما يقامره به على أى مبلغ .. وبدأ يلعب .. لعب الروليت .. والبوكر .. وعشرات من ألعاب القمار .. بل أنه تعلم لعبة البريدج .. إنها لعبة العقول العالمية .. فلماذا لا يثق في أن عقله في مستوى هذه العقول العالمية ويستطيع

أن يهزمها وينتصر حتى على عمر الشريف ويصبح اشهر منه عالميا لا في التمثيل السينمائى ولكن في لعبة البريدج ..

ولعب كل انواع القمار وخسر في كل اللعبات حتى أصبح يستقبل كما يستقبل اصحاب أبار البترول .. مغفل ثرى .. كم خسر .. ربما أكثر من مائتى ألف دولار .. تكاد تقترب خسارته على الملايين .. وبدأ يبتعد عن لعب القمار بعد أن اقنع نفسه انها لعبة تقوم على الحظ لا على عبقرية الذكاء .. وهو لا يكسب الا بذكاائه لا بالاستسلام للحظ .. ولا يهزم ماخسره من الاف الدولارات .. انه يستطيع أن يعوضها بعملية واحدة يقوم بها بعد أن يعود الى مصر ..

وفعلا .. كانت اول عملية مقاولات وصل إليها بعد أن عاد إلى مصر ميزانيتها خمسة ملايين جنيه يأخذها من الحكومة .. من أموال الدولة .. وهى ميزانية توضع على أسس مدروسة .. ثلثها هو ما تتكلفه العملية كلها .. والثلث الثانى يدفع تكاليف التعامل مع المسئولين كبيرهم وصغيرهم .. أى تدفع كرشاوى .. والثلث الباقي الخالص له .. لقد استرد بعملية واحدة اضعاف ما خسره في صالات القمار ..

ويعيش كما تعود .. كل نهاره يعمل كمقاول ولا يرى الا من يحتاج اليهم عمله .. وابتداء من غروب الشمس يعيش البحث عن الشخصية العامة المشهورة .. خصوصا إذا كانت شخصية الفنان .. وقد عاد الى مصر وأهم ما يشغله هو بناء شخصية الشاعر كاتب الاغاني .. ولكن كيف يصل بالاغاني التي كتبها الى هذه الشخصية .. كيف يصل الى وضع أغانيه على لسان المطربين والمطربات ويحرك الملحنين لوضعها في نغمات الموسيقى وكانهم وهم يعزفون أغانيه ويغنونها يعزفون ويغنون له ..

إنه يعرف الأستاذ باهر مصطفى أشهر كاتب أغاني باللغة العربية وفي العالم العربى كله .. لقد التقى به مرات في الليالى التي يجمع فيها كبار الأدباء والفنانين .. وقد التقى بالأستاذ باهر وقال له كأنه يطلعه على سر أنه

كتب مجموعة من الأجزاء يعتقد أنها يمكن أن تكون أغنيات ، ولكنه لا يدري كيف يعرضها على المطربين وعلى الملحنين . . وكيف يختار بينهم . . ويريد منه أن يطلع عليه ويقترح له الطريق . .

ورد الأستاذ باهر وهو يرفع الكأس عن شفتيه :

- إن كل مطرب أو مطربة لها لون خاص من الأغاني ، ويجب أن اقرأ أجزالك أو أسمعها لي حتى أقول لك من تختار لتعرضها عليه . .

واعتذر مهدي عن قراءة أجزاله له . . أقنع نفسه أنه يستطيع أن يشعر ولكنه لا يستطيع أن يلقى الشعر . . كما كان المرحوم أحمد شوقي . . وجمع كل الأغاني التي كتبها وأعطاهم مكتوبة للأستاذ باهر حتى يراجعها . . وكان يدعوهم كل ليلة تقريبا ويوفر له كل ما يوفر له سعادته ونشوته في لياليه . . ولكن الليالي تمر ، والأستاذ باهر يعتذر له بأنه لم يقرأ بعد أجزاله . . وقد تعمد مهدي بحكم معرفته باحتياجات السوق أن يقدم للأستاذ باهر كثيرا من الهدايا . . أن سوق الفن لا يختلف في التعامل معه عن سوق المقاولات . . ولكن الأستاذ باهر لا يزال يعتذر . . إلى أن قال له في ليلة :

- اني اعرف أنك مشغول دائما بانتاج فنك . . وهي مشغولية لانتاجك لك الوقت لتقرأ أجزالي . . ولو تركت تفرغك لانتاجك الفني للاهتمام بانتاجي أنا فإن ذلك قد يكلفك خسائر في رزقك . . فاسمح لي أن أعوضك عما يمكن أن تخسره . . ثم مده يده وناول الأستاذ باهر مجموعة من أوراق النقد . . ألف جنيه كاملة . . وفي بساطة أخذ باهر المبلغ وهو يعد أوراق النقد ، ثم قال من خلال ضحكاته :

- يادوبك ثمن سطر واحد من أغنية تخطر على بالي . .

وبعد يومين جاء الأستاذ باهر يقول له وهو ينظر اليه في اشفاق مع ابتسامة كأنها ابتسامة ساخر :

- إن كلماتك تعبر عن مواضيع رائعة ، ولكن ينقصها كل ما يتطلبه الشعر أو الزجل أو الأغنية من أوزان ، بل وأيضا من حروف تتم بها الكلمات . .

وقال مهدي فورا وبدون أن يناقشه فيما قاله كأنه يعترف فعلا بأنه لايعرف شيئا عن الأوزان :

- كن استاذي وصحح لي أوزاني . .

وقال الأستاذ باهر ضاحكا :

- قد أكون استاذًا في إطلاق أشعاري ، ولكن لم أكن أبدا استاذًا في تصحيح أشعار الغير . .

وقال مهدي في استجداء :

- لاتعتبرني من الغير . . اننا أصدقاء . . وكل صديق أستاذ على صديقه . . أنا أستاذك مثلا في المقاولات وأنت أستاذي في الشعر . . ولكن لن تكون استاذًا مجانيا ، كما اني لايمكن أن أبني لك بيتا مجانا . . وكل تعب له ثمنه . .

ثم قام من جانبه بسرعة ، وعاد اليه يحمل مبلغ الفين من الجنيهات . . وقال مبتسما في رجاء وهو يناوله أوراق النقد :

- صحح لي ولو أغنية واحدة تختارها مما كتبته . .

وقال باهر ضاحكا :

- كأنك تغريتي بأن أصحح لك كل ماكتبته . .

ومر أكثر من أسبوع وعاد اليه باهر وجلس أمامه يلقى الأغنية التي أعدها له . . ومهدي مبهورا . . دهشا . . حائرا . . أن كل الكلمات التي

يسمعا ليست كلماته . . وكل الموضوع الذى تدور حوله الأغنية ليس له علاقة بأى موضوع كتبه . . وقال فى حيرة :

- هل هذا هو شعرى بعد التصحيح ؟

وقال باهر وقد بدأ يضحك :

- إنه من وحى كلماتك . .

ولم يرد مهدى . . انها لا يمكن أن تكون حتى من وحى كلماته ولكنه مد يده لياخذ من باهر الورقة التى كتب فيها كلماته . . ولكن باهر ظل محتفظا بالورقة قائلا :

- كانى كتبت أغنية جديدة لك :

وقال مهدى وقد بدأ ينظر إلى باهر كأنه يتفق معه على عملية مقاولات :

- كم تأخذ ثمنا للأغنية ؟

وقال باهر بلا مبالاة :

- هذا يعتمد على من يشتريها . . كم يستطيع أن يدفع . . بل إنى أحيانا أعطى أشعارى مجانا ليغنيها مطرب جديد لايمك ما يدفعه . .

وظل مهدى محققا فى وجه باهر . . لاشك انه يعلم انه مقاول ثرى ، وهو يعامله كأنه مقاول فن يتعامل مع زبون ثرى كما يتعامل هو مع الأثرياء . . انه يستطيع أن يقول لباهر ببساطة إنه عدل عن احتياجه لتصحيح ما يكتبه . . انها كانت مجرد لعبة يتسلل بها ، وأنه لا يريد هذه الأغنية . . ولكنه أحس بارتباطه بالمشروع الذى بدأ فيه . . مشروع أن تكون له شخصية كاتب الأغانى المشهور . .

وقام صامتا وابتعد فى داخل البيت وعاد يحمل الفين من

الجنيهات . . انه يكون بذلك قد دفع خمسة آلاف جنيه ثمنا لهذه الأغنية التى صححها له باهر . . لا يمكن أن يكون ما يناله من بيع أغانيه أكثر من ذلك . . وأخذ باهر المبلغ بلا فرحة . . وبلا كلمة شكر . . ولوى شفتيه كأنه يعلن خيبة أمله . .

وقال مهدى كأنه يبدأ الخطوة التالية :

- أى مطرب ترشحه لتعرض عليه هذه الأغنية ليغنيها . .

وقال باهر فى برود ، وكأنه لا يريد أن ينزل إلى هذا المستوى :

- إنى أعترض بنفسي ، ولا أعرض الأغانى على أحد ، بل يجب أن يأتى إلى المطربون ليستجدونى . . فانتظر إلى أن يأتوا إلى واختار بينهم . . وطبعا ستعرف من اختاره . .

وبعد أسابيع قال له باهر :

- لقد اخترت المطربة أنعام لتغنيها . .

وفرح مهدى . . ان المطربة أنعام ليست المطربة الأولى فى مصر ، ولكنها مطربة معروفة لها جمهورها . . وبعد حديث طويل سأل باهر :

- هل اتفقت معها على الثمن الذى تدفعه ؟

وقال باهر وهو ينظر إليه بامتعاض :

- أى ثمن ؟

ورد مهدى كأنه يلومه :

- ثمن الكلمات . . حق مؤلف الأغنية . .

وقال باهر كأنه يتهمه بالجهل . .

- اننا لاناخذ ثمننا من المطربين والمطربات انما نكتفى بحق الاداء العلنى الذى يعود اليها .. ومحمد عبد الوهاب نفسه لايمد يده إلى أى مطرب أو مطربة يلحن لها .. ويكتفى بالآلاف التى تعود عليه من حق الاداء العلنى .. وإذا كنت أنت قد دفعت لى أنعابى نظير اعداد هذه الأغنية فقد قبلتها منك لأنك لست مطربا ، ولا اعرف كيف ستستغل كلماتى حتى اشاركك فيها ..

واستسلم مهدى ثم قال :

- ولكنى لا اعرف الست أنعام ..

وقال باهر فى برود :

- سأعرفك بها ..

وبعد أيام حدد له موعدا ليزورا معا المطربة أنعام .. واهتم مهدى بهذه الزيارة .. واختار أشيك بدلة ليرتديها .. لقد كان يتعمد دائما أن يختار أفخم وأشيك البدل والقمصان والكرفطات خلال جولاته فى أوروبا حتى يعرف بأنه أوجه وأشيك رجل مصرى .. بل انه اشترى مرة زيا مخصصا للعب الجولف رغم أنه لايلعب الجولف لمجرد أنه رأى غال أنيق .. ربما كان يتعمد أن يتقلب على عقده النفسية تجاه أبيه الذى لايزال يظهر بالحبّة والقبطان .. والجلاية الحرير .. يريد أن يقول للناس أن المقاول يمكن أن يكون من الوجهاء ..

وقال الأستاذ باهر وهو يقدمه لأنعام :

- أن له الفضل فى كتابة هذه الأغنية ..

انه لم يقل انه مؤلف أو صاحب الأغنية .. وقد استقبلته أنعام فى نوع من التعالى .. اعتبرته مجرد معجب من المعجبين بأغانيها .. وكانت

وهى تتحدث عن الأغنية توجه حديثها كله إلى باهر وتتداول معه الكلمات وتحكى له عن الملحن الذى اختارته ..

وقد حاول بعد ذلك أن يوثق علاقاته بأنعام .. علاقة عمل .. ولكنها دائما متعالية تتجاهله .. وعندما قال لها مرة أنه مؤلف هذه الأغنية ضحكت كأنها تسخر من تفاهته .. وقد قدم لها كثير من الهدايا الغالية .. مرة أرسل لها سجادة عجمى .. ومرة أرسل لها خاتما يحمل قصا من الماس .. وكل ما استفاده هو انها أصبحت أكثر ترحيبا به مع احتفاظها بالتعالى عليه .. وقالت له مرة :

- متى أحى لك حفلة .. ألا تقيم حفلات فى بيتك ؟

كأنها تريد أن ترد له هداياه بالتبرع له بأقامة حفلة تغنى له فيها .. وقد فكر فعلا فى اقامة حفلة كبيرة فى بيته ولو أنه كان يتعمد دائما أن يبعد حياته الاجتماعية عن بيته .. يبعدها عن زوجته المتأخرة إبنة المقاول .. ولكن قبل أن يحدد موعدا لأقامة هذا الحفل .. أذيعت الأغنية .. ولكنه فوجئ وهى تقدم فى الاذاعة بإعلان انها اغنية من كلمات الأستاذ باهر مصطفى .. ان اسمه لم يذكر مع أغنيته ..

واندفع فى جنون المغتاض يبحث عن باهر .. انه منذ أسابيع وهو متباعد عنه كأنه يهرب منه .. ولكنه استطاع أن يجده ويصرخ فى وجهه بالتليفون :

- أين اسمى مع أغنيتى ؟

وقال باهر فى برود :

- لقد الححت على أنعام أن تضع اسمك ، ولكنها أصرت على الرفض .. انها تقول أن الأغنية كلها من كلماتى التى يعرفها الجمهور ، ولايمكن أن يصدق انها كلمات شاعر آخر .. ثم انها تريد ان تعتمد على

أسم شاعر معروف مشهور . . والحقيقة انى وجدت انى استطيع ان ابيع
اى شىء إلا ان ابيع اسمى من فوق كلمات اشعارى . . ولكن لنجرب اغنية
اخرى لعل استطيع ان اضع عليها اسمك . .

وصاح مهدي :

لا . . لا اريد ان ارى وجهك . .

والقى سماعة التليفون كانه يشطب املا من امله . .

ومضت ايام وهو مفتاظ من فشله . . ثم بدأ يهدأ . . لايهم ما انفق
على هذه الهواية التى طرات عليه . . انفق الالف . . ولكن الحمد لله . . لقد
وصل إلى عملية مقاولات جديدة تدر عليه الملايين . . ثم ربما كان الله يرعاه
وهو يحرمه من نشر اسمه ككاتب اغانى . . هذا فى صالحه . . فان الناس
كان لايمكن ان تقديره كمقاول ، وهو يكتب الاغانى . . ان الفن لايدخل فى
تقدير رجال الاعمال . .

* * *

ولكن طبيعته عادت تلح عليه ان يكون صاحب شخصية عامة
مشهورة . . شخصية فنان أو اديب . . وبدأ يسائل نفسه . . لماذا لا يكون
كاتباً . . كاتب قصة . . إنه منذ صباه وهو يهوى قراءة القصص ويعيش
كله فيما يقرأ حتى انه كان تلقائيا يحفظ بعضها كلمة كلمة خصوصا
القصص البوليسية كقصص « روكامبول » و « أرسين لوبين » و « الفرسان
الثلاثة » . . وله فى الحياة الواسعة التى عاشها وطاف خلالها العالم
عشرات الاحداث التى شهدا ويمكن ان يرويها فى قصص . . ثم إن كتابة
القصة ليست فى حاجة الى دراسة الموازين أو الارتباط بالقافية ككتابة
الشعر . . اى انه يستطيع ان يكتب قصة دون ان يحتاج لمن يراجعها
ويصححها له . .

وبدا يقضى كل اوقات فراغه فى كتابة قصة . . وكانت قصة
بوليسية . . ومضت شهور ، وهو لايزال يكتب فيها . . وبعد ان انتهى منها
استطاع ان يتعرف على الأستاذ ابراهيم المرجوشى الناشر وصاحب دار
المستقبل للطباعة . . وقد امضى فترة وهو يحاول ان يقيم صداقة خاصة مع
الأستاذ ابراهيم بكثرة السهرات المرحية التى يدعوه إليها . . انه كرجل
اعمال يعلم انه يجب اولا ان تقيم صداقة خاصة مع من تحتاج اليه حتى
يسهل بعد ذلك التعامل معه . .

وبعد ان توطدت صداقته بالأستاذ ابراهيم . . عرض عليه القصة
التي كتبها ، وطلب منه ان يطبعها وينشرها ويوزعها له . . ووعده ابراهيم
واخذ منه أوراق القصة . . وإن كان قد فرجىء بأن مهدي يكتب القصة
رغم انه كان يعتمد اطالة الحديث معه عن الأدب والأدباء . .

وبعد ايام قال له الأستاذ ابراهيم وهو يبتسم له ابتسامة مفتعلة كانه
ينافقه :

- لقد قرأت القصة . . انها فعلا قصة ممتعة . . ولكنى فى الواقع
لا أستطيع ان اطبعها لك فى كتاب . . فاننا لانستطيع ان نطبع الاكتب
الكتاب المشهورين . . حتى لو كانت كتابا لقصص تافهة . . ولكن شهرة
الكاتب تضمن لنا على الاقل استرداد قيمة التكاليف والا تكبدنا خسائر
ضخمة . . فأنت تعلم مدى ارتفاع أسعار الورق والحبر وأجور عمال
الطباعة وقيمة استهلاك الآلات . .

وقال مهدي وهو ينظر الى ابراهيم فى استجداء :

- وماذا افعل وأنا اريد طبع قصتى فى كتاب ؟

وقال ابراهيم فى بساطة :

- تحمل المسؤولية وحدك . . على الاقل مسئولية الكتاب الاول . .

وقال مهدي في إلحاح :

وابتلع مهدي ريقه كأنه يهضم المفاجأة . وكأنه لم يكن ينتظر أن يرتفع المبلغ الذي يدفعه إلى هذا الحد ، ثم قال بصوت خافت :

- سادفغ ..

وقال ابراهيم وهو ينظر إليه في اشفاق :

- تدفع قيمة تكاليف الطبع بما فيها ثمن الورق ..

وقال مهدي فورا :

- مستعد ..

وقال ابراهيم وهو لا يزال مشفقا عليه :

- وتدفع كل المبلغ مقدما ..

وصاح مهدي :

- مستعد ..

وقال له الأستاذ الناشر الأستاذ ابراهيم المرجوشي وهما يتحادثان معا في موضوع توزيع الكتاب :

- الحقيقة أنها مسئولية معقدة .. فان المكتبات ترفض توزيع كتب من تأليف كتاب غير معروفين لأنها تكلف مصاريف التخزين والعرض والاعلان دون أن يطمئنوا إلى كسب ولا حتى إلى استرداد النفقات ..

واقاطعه مهدي كأنه يعرف مقدما ما سينتهي اليه هذا الحديث :

- كم تبلغ تكاليف التوزيع والاعلان ..

وشد الأستاذ ابراهيم ورقة من أمامه دون أن يتكلم ، وأخذ يكتب بضعه أرقام إلى أن قال :

- خمسة الاف جنيه على الأقل ..

ودفع مهدي ..

وقال ابراهيم وقد بدأت لهجته ترن كلهجة من يعقد صفقة :

- كم نسخة تريد أن تطبع من الكتاب ؟

وفكر مهدي برهة ثم انطلق في حماس كأنه يتباهى بنفسه :

- عشرة آلاف نسخة ..

ولم يقل ابراهيم أن المفروض أن يطبع من الكتاب الجديد ألف أو ألفا نسخة ، فإذا تم توزيعها يطبع منها أكثر في الطبعة الثانية .. ولكنه شد ورقة من أمامه ، وأخذ يسجل عليها بضعة أرقام ثم قال :

- ستضطر أن تدفع مقدما عشرة آلاف جنيه .. وإذا زادت

التكاليف فستدفع طبعاً فأننا لانستطيع أن ننتبأ بالأسعار مقدما ..

وقد مرت مدة أصبح بعدها يرى كتابه معروضا وراء زجاج المكتبات . . وقرأ اعلانات صغيرة في بعض الصحف عن قصة الكاتب الكبير « ابن زمانه » . . ويتصل بالاستاذ ابراهيم بين وقت وآخر يسأله عن عدد النسخ التي بيعت . . ومرت شهور قبل أن يقول له :

« بيعت نسخة . .

ثم شهور أخرى قبل أن يقول له :

« بيعت نسخة ثانية . .

وكان قد أخذ لنفسه مائة نسخة وزعها على اصدقائه ومعارفه كهدايا مجانية . . ثم أخذ مائة نسخة أخرى وزعها أيضا مجانا . . ولكن الذين يوزع عليهم الهدايا لا يتحدثون عن القصة إلا إذا دفعهم إلى ابداء رأيهم فيها . . وبعضهم يعتذر بأنه لم يقرأها بعد وبعضهم يبدو منافقا منتهى النفاق فيما يبيديه من رأى . .

ومضت شهور طويلة دون أن يوزع كتابه أو يشتهر به . . وبدأ اليأس يزحف عليه حتى قرر ألا يكون كاتب قصة ولا كاتب أى كتاب . . وعندما قال له الأستاذ الناشر أنه مضطر أن يجدد دفع مصاريف التوزيع صرخ في وجهه :

« كل من يحتفظون بنسخ من هذا الكتاب من حقهم أن يحرقوها أو يبيعوها كأوراق دشت لصناعة القراطيس . .

انه لم يفكر حتى في جمع النسخ والاحتفاظ بها إحتراما لها . .

ولايهم ما انفقه ليكون كاتب قصة . . إن عمليات المقاولات تزاد نجاحا . . وفيها العوض . .

* * *

إلى أن عرف الممثلة السينمائية متار . .

عرفها في إحدى السهرات التي يقيمها لأهل الفن والأدب . . وقد جاءت مع صديق من الأدباء ولم يبهج لمجرد تشریفها له فهي في الواقع ليست نجمة سينمائية مشهورة ولكنها معروفة . . ولم تظهر حتى اليوم في افلام الا في الأدوار الثانية وأحيانا الأدوار الثالثة . . ولكنها بهر بها هي نفسها منذ رآها . . انها تملك هذا النوع من الأنوثة والجمال الذي يجذبه دائما . . وشخصيتها تجمع بين الجدية والوقار حتى انها تستطيع أن تدخل في مناقشات فنية جادة تبدو فيها كأنها نجمة براقة من نجوم الفن وعالمة من علماء الأدب . . ولاشك انها قرأت كثيرا وتثقف نفسها ثقافة ممتازة . . ثم عندما تتفرغ لأنوثتها تكون من أقوى النساء اثارة وخبرة في الارتفاع بالرجل إلى منتهى متعته كأنها ترتفع به إلى السماء وتدخله معها الى الجنة . . لعل شخصيتها هي نفس شخصيته . . فهو أيضا في منتهى الجدية بالنسبة لعمله كمقاول . . وفي منتهى التفرغ للبحث عن متعته في حياته الخاصة . .

وتجاوبا وتقاهما منذ اللقاء الأول . . وأصبح يقضى كل لياليه معها في بيتها . . وأصبحت هي التي تقيم السهرات التي تجمع الأدباء والفنانين في بيته الخاص الذي يسميه بيت الفن . . ولم يكن يدفع لها ثمنا لكل هذه الليالي التي تعطيلها له . . ولكنه عرف بالصدفة ودون أن تتعمد أن تطلب منه أنها مديونة وأصبحت مهددة بالحجز عليها . . فتحايل عليها حتى قبلت أن يدفع عنها ديونها . . ودفع خمسين ألف جنيه . . هذا أقل ما يفرضه الواجب عليه بعد أن أصبح رجلها . . وكان أخوها يحاول أن يسافر إلى امريكا ليتم دراسته . . ولكنه لا يجد مايوفر له دراسته . . وأخته متحسرة عليه . . فتبرع له بخمسة آلاف دولار حتى يستطيع أن يتعلم في امريكا . . ثم أن الشقة التي تقيم فيها منار ويقضى فيها لياليه معها شقة متواضعة لائتليق بها ولا تعجبه هو شخصيا . . فاشترى لها شقة في مدينة المهندسين وزحمها بكل الاثاث الذي تختره بذوقها . . لقد أصبحت غرفة

النوم التى تضمهما كأنها ركن من متحف عالمي ..

إنه منذ التقى بها وهو ينفق الكثير من أمواله حولها .. ولكن .. ان واجب الرجل يدفعه إلى أن يضع المرأة في مستوى الحياة الذى وصل اليه .. مستوى أصحاب الملايين .. وماهو الحب .. انه تبادل تحمل المسؤولية بينه وبينها .. الرجل يحمل مسؤولية المرأة .. والمرأة تحمل مسؤولية الرجل .. وهو لاشك يحبها ..

وقد دفعه الحب الى أكثر .. فهي دائما تشكوه من متاعب عملها في السينما .. ان كل الأبواب تغلق في وجهها لأن كل منتج يطمع في الوصول الى جسدها .. وهي ترفض لأنها متفانية في الإخلاص له .. وبدأ يسأل نفسه لماذا لاينتج فيلما لها على حسابه .. لم لا .. ان زعيم الاقتصاد المصري طلعت حرب قام ببناء الفن السينمائي والمسرحي بأموال بنك مصر .. فليبدأ هو ببناء منار كنجمة سينمائية وبعدها يستكمل بناء الفن المصري كله ..

وبدا يدفع لانتاج فيلم سينمائي .. والواقع انه لم يكن يتصور أن يدفع كل هذه المبالغ .. انه لم يدرس عملية الانتاج حتى يتأكد من قيمة مايدفعه هنا وهناك .. ولعل منار وهي التي تعتبر مسئولة عما يدفعه مضطرة أن تستسلم لكل مايطالبه المسئولون عن انجاح الفيلم حتى يبدلوا أكثر في انجاحها .. انه يدفع حتى للصحف والمجلات التي تنشر صور منار ، والصحفيين الذين يكتبون عنها .. رغم أن ما ينشر لا يحمل صورة الاعلان .. ورغم ذلك يجب أن يتحمل .. انه مشروع كبير .. وفي كل مساء ينتهى من عمله يذهب إلى منار في الاستديو .. ويستقبل هناك بترحاب واحترام كبير .. وكان يهنا بمتعته وهو داخل الاستديو يتفرج على ما يجري فيه .. إلى أن قالت له منار في ليلة وقبل أن يضمهما الفراش ..

- أصبحت لا أحتمل كلام الناس عنى وعنك ..

وقال في دهشة :

ماذا يقولون ؟

وقالت وكأنها تهم بالبكاء :

- انهم لايعترفون بى كفنانة .. أنا مجرد عشيقة لرجل يرضينى بأن ينتج لى فيلما ..

وقال في حيرة كأنه لم يكن يحسب حساب كلام الناس ..

- وكيف نسكتهم عن الكلام ..

وقالت وهي تسقط وجهها بين كفيها ودموعها تنهمر على خديها :

- ليس هناك الا أن نتزوج .. ان الكلام عن زوجة غير الكلام عن عشيقة .. ولعل اطلب المستحيل ..

واحتضنها بين ذراعه وقال وهو يضحك كأنه يخفف عنها :

- نتزوج يا حبيبتي ..

وتزوجها فعلا .. ونشر خبر الزواج في الصحف وعرفه كل من يعرفونه ..

ولم يسأل عن زوجته الأولى .. لقد قال لها أن من حقها أن تطلب الطلاق ، وأما أن تعيش زوجة مهجورة .. وقد ترك لها البيت هي وأولادها وأصبحت كل حياته في البيت الذى اشتراه وأثته لمنار ..

ولكن أحداث احساسه تتغير منذ تزوج .. انه لايطبق الطلاق زوجته في حرية اتصالها بالرجال .. من يدري ماذا بينها وبين هذا المخرج ، أو هذا الممثل أو هذا الكاتب .. ان احساس الزوج يختلف عن احساس العشيق .. ولكنه يصمت ويتحمل وكما اختلف مع زوجته وشغل

معها في نقاش كأنه معركة . . استطاعت دائما ان تسكته . . او هو الذى يعود ويستسلم ويسكت . .

والاكثر من ذلك أنه بدأ يلاحظ أن كل من تجمعهم به أعماله كمقاوم يستقبلونه وبين شفاهم ابتسامات ساخرة أو مشفقة . . وبعضهم يهينه بزواجه من منار وهو يضحك . . ثم بدأ يلاحظ أنهم يترددون كثيرا قبل أن يقبلوا العمل معه والاتفاق على الصفقات . . وقد بدأ يبذل مجهود أكبر في اقناعهم بالتعامل معه بعد أن كان يحوز أكبر تقدير وثقة بين المقاومين . .

وانتهى الفيلم . . وعرض في دور السينما . . وقبيل فشلا ذريعا . . لقد حاولت منار أن تقنعه بأن الأفلام تحتاج الى عرضها مدة طويلة تصل الى سنوات قبل أن تحقق أرباحها . . ولكنه اقتنع بأن هذا الفيلم لن يحقق له أى ربح ولن يسترد أبدا شيئا مما أنفق عليه . . لقد انفق مبلغا طائلا . . بين مائتى الف . . ثلثمائة الف . . قد يصل ماخسره الى نصف مليون جنيه . . كيف يستطيع أن يعوض هذه الخسارة من عمليات المقاولات وقد بدأ يفقد الثقة من التعامل معه كمقاوم . . انهم لا يريدون أن ينسوا أنه تزوج هذه المرأة . . منار . . وهذا المجتمع الذى يجمع أصحاب الملايين من كبار المقاومين ورجال الأعمال ، يعترف للرجل فيه بأن يمتع نفسه بأى امرأة مهم كلفته متعته . .

وكلما وصل الرجل منهم الى امرأة صعبة كان من المستحيل الوصول اليها قدره هذا المجتمع أكثر ورفع فوق رأسه العلم كأكبر واشطر واحد بينهم . . اما إذا تزوج واحدة من تلك النساء فهو يسقط مباشرة إلى حضن هذا المجتمع . . ان الزواج غير ممارسة المتعة . .

ماذا يفعل حتى يسترد قيمته كمقاوم ويعوض ما كلفته منار من خسائر؟ !

وقاده تفكيره الى أنه يجب أن يهجرها . . أن يطلقها . . ولعله كان قد

شبع منها حتى بدأت تتخمر حياته . . وطلقها بعد أن دفع لها مبلغا كبيرا حتى يسكنها عنه ولا تقدمه للمحاكم . .

وعاد إلى بيته وزوجته وأولاده . . واستطاع أن يسترد قيمته كمقاوم . . ولكن مع السنوات بدأت طبيعته تعود وتثير فيه أمنيته بأن يكون شخصية عامة مشهورة . . شخصية أديب وفنان . .

ومن يدري ؟ !



كتب

المحتويات

الصفحة

٣	١ - كانت صعبة . . ومغرورة . .
٣٦	٢ - أحلام ابن الشحاذ . .
٥٠	٣ - نائم وهو صاح . .
٥٩	٤ - نوع آخر من الجنون . .
٧٠	٥ - رأس غير رأسى . .
٨٣	٦ - هو . . والحمار . .
٩٣	٧ - وفشلت في الطريق الآخر . .
١٠٩	٨ - الطريق الأقرب . .
١٢٢	٩ - وكأنه مات . .
١٣٩	١٠ - أرى أمى معلقة في أذنيك . .
١٥١	١١ - البحث عن الشخصية الأخرى . .

مطبوعات

مركز الأهرام للترجمة والنشر

■ كتب للأطفال والنشء

● في مجال العلوم

- ١ - الموسوعة العلمية الأولى للأطفال
(ترجمة : د. محمد أمين سليمان)
- ٢ - طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر
(ترجمة : د. أيمن الدسوقي)
- ٣ - سلسلة علماء العرب :
○ ابن النفيس
(مكتشف الدورة الدموية الصغرى)
○ ابن الهيثم (عالم البصريات)
○ البيروني (عالم الجغرافيا الفلكية)
(سليمان قياض)

● في مجال التربية البدنية والرياضية :

- ٤ - موسوعة جوفى الرياضية :
○ السباحة والغطس .
○ الألعاب الأولمبية .
○ ألعاب الأطفال .
(ترجمة : د. - المستكاوى)

● في مجال ترقية المهارات والخيال :

- ٥ - ألوان ألوان
(حين أبو زيد)